عن
العرب والبحر

أبو أدهم
عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أستاذ
كلية الآداب جامعة القاهرة

١٤٢١ ـ ٢٠٠١

الطبعة الثانية مزيدة

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيرى

إهداء

إلى ..

الشريفة إحسان محمد الباز

أمي

في جوار ربها راضيةً مرضية

هذا الكتاب وليد أبوه بعض منكِ

قد كان حلم حياة أن يحتوي بيديك

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في العام ١٩٨٩ تضم موضوعين ؛ عن علاقة العرب ببحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وعلاقتهم - أو بالأحرى علاقة العُمانيين منهم - ببحر الهند (المحيط الهندي). ونزعم أن قد توصلنا إلى حقائق كانت مخبوءةً ، نهضنا بكشف حُجُبها .

في هذه الطبعة الثانية أضفنا موضوعًا ثالثًا عن « البحر في الشعر الجاهلي » والحق إن هذا الموضوع - شأنه شأن الموضوعين السابقين - جدير بأن يثير قضيةً هامةً ، هي الموارد التي نستمد منها حقائق التاريخ .

درجت الحال لدى الكثرة الغالبة من دارسي التاريخ في بلادنا ، إنهم يستمدون مادتهم من موارد تاريخية مباشرة ، ويعزفون عن غيرها ، كما يعزفون عن الموضوعات البينية التي تقتضي معاودة موارد شتى في معارف شتى ، لا يمتلكون أدوات الإفادة منها .

نسى هؤلاء أو هم تناسوا أن المؤرخ لا يكون مؤرخًا، إلا إذا طالع كل ما يتصل بتخصصه ، سواءً كان تاريخيًا بذاته أم لم يكن. وليس مهمًا هنا أن تقرأ فى غير التاريخ ، المهم أن تكتب فى التاريخ .

إن نهجًا مثل هذا النهج سار عليه حمدان فى علم الجغرافية ، كان سببًا - بين أسباب أخرى - فى أن صار كتابه الفلتة «شخصية مصر» مقروءًا من عامة المثقفين وخاصتهم على سواء .

نتقدم بهذا الكتاب فى طبعته الثانية ، وكما كنا عند حسن ظن القارئ أولاً ، نرجو أن نكون عند حسن ظنه ثانيًا .. والله أعلم

الهرم - الجيزة فى يوم الجمعة غُرَّة ذى القعدة ١٤٢١

السادس والعشرين من يناير (كانون الثانى) ٢٠٠١

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

مقدمة الطبعة الأولى

ولدت فى مكان بعيد عن البحر ... لكننى عشقت البحر ، وأكتب عن البحر .

فى صباى كنت أحلم بالسفر مع الفتى البصرى الذى امتطى عباب الموج ، ليلتحق بحبيبته الجنية فى جزائر واق الواق [1]..

وفى صبوة الشباب كانت لى مغامرة ، انتهت بى إلى الجانب الآخر البعيد ، من بحر الظلمات .

وبين هذين العمرين كنت أحلق فى عوالم سحرية ، مع كون تيكى [2] وليلِّبوت[3] وموبى ديك [4]..

يذهب الشباب ، ولا يذهب بعض من أريج الشباب .

---

(١) قصة الحسن البصرى ومنار السنا إحدى قصص ألف ليلة وليلة .

(٢) إسم الطوف الذى عبر به الرحالة الكبير هاير دال إلى إحدى جزر المحيط الهادى .

(٣) جزيرة الأقزام فى رحلات جليفر لسويفت .

(٤) الحوت فى رائعة ملفيل .

فى تراثنا وفى تراث غيرنا من الأمم يحتل البحر مساحةً وافرةً ، كما إن للبحر علمًا يختص به، هو الأوقيانوغرافيا Oceanographia ويقوم على أسس من علوم الحياة والكيمياء والجغرافيا والأرض ، ويقدر العلماء أن البحر ، هو مستقبل البشر فى أكثر من مساق .

في أقطارنا العربية حظى البحر باهتمام بعض من أدبائنا[٥]، لكنه لم يحظ بالاهتمام نفسه ، من مؤرخينا ، وهم - فى معظمهم - يركزون على جوانب سياسية - عسكرية أولاً واقتصادية بعد ذلك .

وهذا الكتاب - نزعم - ينهج نهجًا مختلفًا ، والفكرة المحورية فيه ، مساهمة العرب فى توسيع آفاق المعرفة الجغرافية ، مما مهد لأن يتعانق عالم قديم معلوم ، مع عالم جديد مجهول ، إبان عصر الكشوف .

---

(٥) مثل حسين فوزى فى سندبادياته .

والكتاب بابان ، نعرض فى أولهما للمحيط الأطلسى ، والعلاقات التى أنشأها العرب معه ، منذ زمن الفتوح ، ومحاولاتهم القليلة .. الجليلة فى الوقت نفسه لركوبه ، وما تردد بشأن وصولهم إلى غايته فيما يعرف اليوم بأمريكا .

فى الباب الثانى نعرض للمحيط الهندى ، والدور الذى نهض به العرب من أهل عُمان ، فى التعرف إلى هذا البحر ، بحيث صار بحيرةً عربيةً ، تحلقت حولها ـ على تفاوت ـ حضارة زاهرة ودين قيم .

ولا ندعى أننا وفينا الموضوع حقه من وفاء ، وندعى أن المجتهد على الدرب يواصل اجتهاده .

العجوزة ـ الجيزة فى غرة المحرم ١٤١٠

٣ من أغسطس ١٩٨٩

د. عبادة عبد الرحمن رضا كُحيلة

الفصل الأول

العرب فى بحر الظلمات

فى سنة ٦٢ / ٦٨٢ وصل الفارس العربى الشهير عقبة بن نافع الفهرى إلى سيف البحر فى أقصى المغرب ، وخاض بفرسه فى أمواهه ، وقال عبارته الشهيرة : اللهم إنى أشهدك أن لامجاز، ولو وجدت مجازا لجزت[1] .

لانستبعد عن عقبة قولةً مثل هذا ، فقد كان فارساً مغامراً ، وحياته نهر دفاق بالمغامرات ، إنتهى به نهاية بطل تراجيدى فى دراما يونانية .

البحر – أى بحر – فى تراث الأمم القديمة مرادف للغموض ، ورغماً عن معرفة العرب [2] الدقيقة ببحر

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وإفريقية والأندلس . تحقيق عبدالله أنيس الطباع (بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٤) ص ٦٠ وانظر أيضاً : إبن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال وكولان . (بيروت ، دار الثقافة) جـ ١ ص ٢٧ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٤ تحقيق حسين نصار . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ ، ص ٢٧ .

(٢) على وجه التحديد عرب اليمن وعمان الذين طوحت بهم همتهم البعيدة الى سواحل الهند والصين من ناحية وساحل الزنج (زنجبار) من ناحية أخرى

الهند [٣]، وخبرتهم الواسعة فيه ، فإنه لم يسلم من هذا الغموض. ويكفى ماتسرب الى مأثورهم الشعبى من قصص خاصة بهذا البحر ، نتلمس بعضها فى المجموع القصصى المعروف بألف ليلة وليلة .

والعرب عندما حطت رحالهم لدى أقصى المغرب فى زمن الفتوح ، استفزهم مرأى هذا البحر وألهب خيالهم ، وكان قميناً بهم أ ن يلّجوا فيه ويركبوا أمواجه ، وحال دون ذلك تطرف هذا البحر ونأيه عن مركز المعمور . فى الوقت نفسه لم تكن للعرب ، ولا لغيرهم من الأمم السابقة عليهم مرافئ كافية صالحة للملاحة على واجهته ، ولم تكن سيطرتهم على هذه الواجهة تتعدى أشبونة شمالاً ، وبعض ثغور المغرب جنوباً .

أعان على ذلك أن ولوج القارة الإفريقية براً كان أيسر من ولوجها بحراً [٤]، ومنذ أزمنة متباعدة ، كانت القبائل البربرية على دراية بدروب الصحراء ومسالكها ، كما كانت لها امتدادتها فى بلاد السودان .

---

(٣) توجد تفصيلات وافرة عن نشاط العرب البحرى فى المحيط الهندى فى الكتاب القيم لجورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى قبل الإسلام وبعده . ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨) .

(٤) سواحل القارة جنوبى المغرب ، لاتوجد بها تعريجات تعين على قيام موان طبيعية محمية ، كما إن الظهير فى معظمه صحراوى طارد .

يقـول الشـريف الإدريسى (ت حـوالى ٥٦٠/١١٦٤) :[٥]
«ولايعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولاوقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره وإظلام أنواره ، وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة ، ومنهـا معمـورة ومغمـورة ، وليس أحد من الربانيين يركبه عرضاً ولاملججاً ، وإنما يمر منه بطول الساحل لايفارقه.

- 1 -

المحيط الأطلسى أو الأطلنطى نسبـة الى أتلانتس Atlantis وهى – فى الميثولوجيا اليونانية – جزيرة واسعة ممتدة ، تقع قرب مضيق جبل طارق Gibraltar ، عند ملتـقى قارتى أوروبا وليـبيـا (وهى إفـريقـيـة) ، وتنسب أتلانتس نفـسهـا إلى أطلس Atlas ، وهوتيـتـان (أى عـمـلاق) كـان يحـرس أعـمـدة السـمـاء عند هوميروس، أو يرفعها عند هزيود[٦] .

---

(٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، تحقيق تشيرولى وآخرين . (روما – نابولى ١٩٧٠ – ١٩٨٤) جـ ٥ ، ص ٥٢٥ .

(6) Oxford Classical Dictionary (2nd edition 1984), p. 143.

عرف العرب هذا البحر بمسمىً عام هو البحر المحيط ، أو البحر المحيط الأكبر ، ومسميات أخرى خاصة هى أوقيانوس ، بحر الظلمات ، البحر الأخضر ، البحر الأسود .

أما عن المسمى العام وهو البحر المحيط ، فقد كان تصور القدماء أن الأرض كتلة واحدة متصلة من اليابس ، وبحر واحد متصل يحيط بهذه الكتلة من كل وجه ، وإن كان يطلق على بعض أجزاء هذا البحر أسماء تنسب الى الأراضى التى تجاورها أو إلى الجهة التى تحدد هذه الأجزاء [(٧)] .

يقول صاحب تحفة الألباب : [(٨)]

«إعلم أن البحر المحيط الذى أحاط بالدنيا ، والأرض فى وسط البحر ، كالكرة فى غدير ماء» .

---

(٧) يطلق ابن جبير (ت ٦١٦/١٢٢٠) على مانعرفه اليوم بالبحر الأحمر مسميات مختلفة هى بحر القُلْزُم (ص٣١) وبحر جدة (ص ٤٠) وبحر عيْذاب (ص ٤١) وبحر فرعون (ص ٤٤) وهذا كله فى صفحات متقاربة ، وواضح إنها ترتبط بمواقع عليه أو أحداث تاريخية. الرحلة، (بيروت ، مكتبة الهلال ١٩٨١) .

(٨) أبوحامد الغرناطى (ت ٥٦٥/١١٦٩–١١٧٠) نشر فيران . (باريس ١٩٢٥. مستخرج من المجلة الآسيوية) ص ٩١ .

عندما ننتقل الى المسميات الخاصة ، يواجهنا مصطلح أوقيانوس فهو معرب عن اليونانية Oceanus ابن السماء Uranus والأرض Ge ، ويتصوره هوميروس نهراً محيطاً بالأرض كلها ، يبدأ من عمودى هرقل وهو جبل طارق ، ويمضى غرباً إلى حيث تغرب الشمس ، وتعيش فى مياهه وحوش غريبة مثل الجورجون Gorgons (٩) .

عندما نقل المسلمون جغرافية اليونان ، خاصةً بطلميوس Ptolemaeus Claudius إنتقل إليهم هذا المصطلح وعربوه ، وفى الترجمة العربية الأندلسية لتواريخ أوروسيوس (١٠) Paulus Orosius ، نجد أن تعبير البحر المحيط ، يقابل فى الأصل اللاتينى تعبير Oceanus .

أما تعبير بحر الظلمات أو بحر الظلمة أو البحر المظلم ، فهو تعبير لصيق بالأرض التى تجاور هذا البحر ، وهى بلاد المغرب ، فما دامت الشمس تذهب من هذه الجهة ، فإن مابعدها يصير مظلماً . ويلاحظ أن اليونان أطلقوا على إسبانيا فى القديم تعبير هسپيريا Hesperia ، وهو تعبير مشتق من هسپيروس Hesperus ،

---

(9) Oxford Classical Dictionary. p 744.

(١٠) تاريخ العالم : تحقيق عبدالرحمن بدوى ، (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٢) ص ٦٧ .

ومعناه نجمة المساء ، التى تصورها الفنان القديم فى هيئة صبى يحمل مصباحاً [١١] .

على أن لفظة ظلمة لها عندنا دلالات لغوية كثيرة ، فهى مرادفة للشر وشدته ، والعرب تقول لليوم الذى تلقى فيه شدةً «يوم مظلم» ، وظلمات البحر شدائده [١٢] .

فإذا انتقلنا الى تعبير البحر الأسود ، فالسواد أيضا يعنى العمق، وسواد القلب حبته ، وتصغر الى سويداء ، والسواد المعظم ، وسواد القوم معظمهم [١٣] والسواد العراق أو معظمه .

يتصل السواد هنا بالخضرة ، وكان العرب يبادلون أحياناً بين الأسود والأخضر[١٤] ، واليخضور الماء[١٥] ، واختص المقدسى[١٦] (ت حوالى ٣٩٠/ ١٠٠٠) البحار فى خريطته بالخضرة والأنهار بالزرقة .

---

(11) Oxford Classical Dictionary p. 511.

(١٢) إبن منظور : لسان العرب (القاهرة ، دار المعارف ١٩٨١) ، م٤ ، ص ٢٧٥٩ .

(١٣) المصدر نفسه ، م٣ ، ص ٢١٤١ ، ٢١٤٣ .

(١٤) المصدر نفسه ، م٣ ص ٢١٤٣ .

(١٥) ابن سيده : المخصص (بيروت ، دار الآفاق الجديدة د.ت) جـ٣ ، سفر ١٠ ، ص١٦ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، (ليدن ، بريل ١٩٠٦) ص ٩ .

على إنه لا يبعد أن يكون تعبير البحر الأخضر ، ميراثاً خلفه المصريون لغيرهم من الأمم ، فعندما نشط هؤلاء فى ركوب البحر فى زمن نيكاو الثانى (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق.م) تواتر تعبير «قباطنة الأساطيل الملكية فى البحر الأخضر الكبير» فى نصوص ذلك الزمان [١٧] .

لايبعد أيضا أن يكون لهذا التعبير تفسير طبيعى ، فاللون الأخضر يرتبط على نحو خاص بالمياه القريبة من الشاطئ والمياه الضحلة ، لما تعج به هذه المياه من أحياء دقيقة ، أخصها ما يعرف بالپلانكتون Plankton ، أما اللون الأزرق فيرتبط بالمياه البعيدة والعميقة التى تقفر من هذه الأحياء [١٨] .

من المسميات الأخرى لهذا البحر أپلاية ، پلاية ، لپلاية ، وجميعها تعريب للفظة اللاتينية Pelagus وتعنى بحراً [١٩] .

(١٧) عبدالعزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ؛ مصر والعراق . (القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٤) جـ١ ، ص ٣٠٤ .

(١٨) كارسون : البحر المحيط بنا ، ترجمة أحمد مختار الجمال ، (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د.ت) ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(١٩) إبن عذارى : المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٦ . الحميرى : الروض المعطار . تحقيق إحسان عباس ، (بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٤) ص ٤٤٩ ، ٥٠٩ . وانظر أيضاً :

Simonet J: Glosario de Voces Ibéricas y Latinas Usadas entre Los Mozárabes (Madrid Establecimiento tipográfico de fortanet, 1888) pp. 450-451.

- 2 -

نقل العرب عن اليونان تصورهم للمعمور من الأرض بنحو ربعها ، وحدوده فى النصف الشمالى منها ، ونقلوا عنهم تقسيم هذا المعمور إلى سبعة أقاليم ، وإن خرج ابن سعيد (ت ٦٨٥ / ١٢٨٦) [٢٠] على هذه القاعدة ، فأضاف إقليماً ثامناً جنوبى خط الاستواء ، وإقليماً تاسعاً فى قاصية المعمور شمالاً .

ما دام الأمر كذلك وإنه لكذلك ، فالبقية من الأرض قليلها يابس ، لايمكن الحياة فيه لحره الشديد أو لبرده الشديد ، وأكثرها البحر المحيط .

تصور العرب البحر المحيط ـ كما سبق وذكرنا ـ بحراً واحداً متصلاً ، وبحار العالم خلجاناً متفرعةً منه ، ويخرج عن هذه القاعدة بحر الخزر [٢١] (وهو بحر قزوين) وبحر خوارزم «وهو بحر أو بحيرة آرال» ، وثمة ميل عندهم لأن يجعلوا البحور سبعةً ، مثلما الأرضين سبع والسموات سبع .

---

(٢٠) كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربى(بيروت ، المكتب التجارى ١٩٧٠) ص ١١١.

(٢١) ويعرف أيضاً ببحر جرجان وبحر طبرستان .

لدينا أمثلة على نظرية العرب فى اتصال البحار ، من منطلق اتصالها بالبحر الأم ... من ذلك مايذكره المسعودى (ت ٣٤٥/ ٩٦٥) (٢٢) من إنه عثر فى بحر الروم على ألواح سفن من النوع الذى لايستخدم إلا فى البحر الحبشى.

نركز كلامنا على بحر الظلمات ، فقد كانت معلومات العرب عن بعض جزائره ، لاتخرج عن كونها عجائب ، والبعض الآخر معلوماتهم عنها تدخل دائرة الحقيقة ، فمن الجزائر الأسطورية جزيرتان ؛ اختصت إحداهما بالنساء ، واختصت أخرى مجاورة لها بالرجال ، وهم لايجتمعون الا فى أوان الربيع (٢٣) ، ومنها جزيرة بها تنين عظيم ، احتال الإسكندر على قتله ، وجزيرة بها خلق كالإنسان ، إلا أن رءوسهم كرءوس الدواب (٢٤) .

---

(٢٢) مروج الذهب تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد . (بيروت ، دار المعرفة ١٩٨٢) جـ١ ، ص ١٦٣ .

(٢٣) الدمشقى (شيخ الربوة) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . نشر ميرين، (لايبتسيج ١٩٢٣) ص ١٣٥ .
وانظر أيضاً : ابن سعيد : المصدر نفسه ، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

(٢٤) الإدريسى : المصدر نفسه جـ ٣ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، الحميرى : المصدر نفسه ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

الجزائر من النوع الآخر ، نذكر منها جزائر السعادات الخالدات ، وهى المعروفة فى العصور الكلاسيكية باسم Fartu-natae Insulae ، واتخذ بطليموس من طرفها الجنوبى نقطة البداية لخطوط الطول والعرض [٢٥] ، ونهج العرب على منواله[٢٦] .

ويذهب مؤنس (ت ١٩٩٦) [٢٧] إلى الفصل بين السعادات وبين الخالدات ، فيجعل السعادات هى كانارياس Canarias والخالدات هى أثوريس Azores ، وربما كان مؤنس مصيباً ونستطيع أن نجد له أصولاً فى ابن سعيد[٢٨] الذى يجعل جزائر السعادة ، فيما بين الجزائر الخالدات والبر .

على إنه بمراجعة الجغرافيين العرب نجد معظمهم يقررون أن السعادات الخالدات مجموعة جزرية واحدة ، وكانوا يكتفون أحياناً بذكر الخالدات فقط، ويقصدون بها كاناریاس ، وكانوا

---

(25) Oxford Classical Dictionary p. 445.

(٢٦) إبن سعيد : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢٧) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ط٢ ، (القاهرة ، مكتبة مدبولى ١٩٨٦) ص ٥٠٤ حاشية ١ .

(٢٨) إبن سعيد : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

يدعونها أيضاً فرطناطش ، وهو تعريب للأصل القديم [٢٩] .

يتفق الجغرافيون العرب على أن كانارياس واغلة فى البحر المحيط الغربى عشر درجات ، واذا كانت الدرجة عندهم تساوى ستة وخمسين ميلاً وثلثى الميل [٣٠] ، فإن ذلك يعنى أنها تتناثر فى مساحة مائية تصل إلى خمسمائة وستة وستين ميلاً .

أما عن بعد هذه الجزر عن الساحل الإفريقى وهو ستون ميلاً، فيؤكده ابن سعيد [٣١] ، ويضيف إنها تلوح للناظر عند مدينة سلا فى اليوم الصافى.

إذا نحن صعدنا شمالاً نجد جغرافيينا يتحدثون عن جزائر أخرى فى هذا البحر ، فيذكرون برطانية أو برطينية ، وهى إثنتا

---

(٢٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان (بيروت ، دار احياء التراث العربى ١٩٧٩) جـ٢ ، ص ١٣٢ـ ١٣٣ ، الدمشقى : المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٣٠) الميل العربى يساوى فى أطوالنا الحديثة نحواً من كيلو مترين (١٩٧٣,٢ متراً) أنظر كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين هاشم . (القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣) ق ١ ص ٨٣ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة فتحى عثمان (القاهرة (دار القلم) ص ١٥٠ حاشية ٢ .

(٣١) فى المقرى : نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . (بيروت ، دار صادر ١٩٦٨) جـ١ ، ص١٦٧ .

عشرة جزيرة[٣٢] ، ولايغفلون الحديث عن إرلاندة ، وكيف إنه بقربها جزائر، بها الدب الأبيض يدخل البحر ويسبح ويصيد السمك[٣٣]

الأغرب من ذلك يشير جغرافيونا الى جزيرة تولية أو تلية أو تولى وهى Thule [٣٤] ـ الاسم القديم لأيسلنده ـ ويذكر المسعودى [٣٥] أن النهار فيها، يصل الى عشرين ساعة ، كما يذكر صاحب نخبة الدهر [٣٦] أنها مأهولة .

يتضح لدينا إن المسلمين كانوا يتابعون ما يجرى من تطور فى آفاق المعرفة الجغرافية ، ولايكتفون بما طالعوه فى كتب اليونان ونقلوه ، فجزيرة أيسلندة لم تصبح معروفةً عند الأوربيين إلا فى أواخر القرن التاسع الميلادى [٣٧] ، أى قبيل ولادة المسعودى بسنوات قليلة .

---

(٣٢) المسعودى : التنبيه والإشراف ، نشر دى خويه (ليدن ، بريل ١٩٦٧) ص٦٨ ، ابن رستة . الأعلاق النفيسة . (ليدن ، بريل ١٩٦٧) ص ٨٥ .

(٣٣) إبن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص ٢٠٠ .

(٣٤) أول من وصفها پيثياس ، ووردت عند الكتاب اليونان والرومان على نحو غامض، وتوجد إشارات عنها فى پيثياس وبطلميوس وإراتوسثينيس . Oxford Classical Dictionary p. 1070

(٣٥) مروج الذهب ، جـ١ ، ص٨٦ .

(٣٦) ص ١٣١ .

(٣٧) راجع صفحة ٤٩ من هذا الفصل .

عندما ننتقل الى مظاهر الحياة فى هذا البحر ، نجد العرب يفسرون تعبير فرطناطش ، لما حفلت به من غياض ، ضمت أصناف الفواكه الطبيعية ، من غير غراسة ولا عمارة ، وكذلك أصناف الرياحين [٣٨] ، وقرب مصب النيل - ويقصدون به نهر السنغال - توجد مدينة أوليل ، وبها ملاحة مشهورة ، ولايعلم فى بلاد السودان ملاحة غيرها ، ومنها يحمل الملح الى سائر هذه البلاد[٣٩] . وغير بعيد عنها جزيرة العنبر أو السلاحف ، حيث يصطاد الناس السلاحف ، ويقددون لحمها ويسافرون به [٤٠] .

ومن اللمحات الذكية عند ابن سعيد [٤١] ، إشارته الى الجون الأخضر الذى شاهده الرحالة ابن فاطمة ، ودعى بذلك لما فيه من حشيش أخضر كثير، وليس هذا الحشيش سوى الپلانكتون النباتى الذى يعمر به البحر المحيط فى مياهه القريبة من الشاطىء .

---

(٣٨) ياقوت الحموى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٩٤ .

(٣٩) الإدريسى : المصدر نفسه جـ١ ، ص ١٧ ، إبن سعيد : المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

(٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ١١١.

كما يشير أيضاً إلى دابة فى نهاية من الطول والعرض ، شاهدها ويقول إن المسافرين فى البحر يخافون منها ، لئلا تقلب المراكب ، ولها نفخ بالماء من فيها ذى ارتفاع مفرط [(٤٢)] ، وليست هذه الدابة سوى حوت العنبر أو البال [(٤٣)] الذى يدعوه العرب أيضاً بالوال [(٤٤)] ، ويضيف صاحب تحفة الألباب [(٤٥)] إن هذه الدابة عندما تتواجد فى مكان ماؤه قليل ـ أى ضحل ـ

---

(٤٢) فى المقرى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

(٤٣) يكثير حوت العنبر فى البحار الاستوائية ، ورأسه يساوى ثلث جسمه ، وفيه زيت سائل فاخر، وتخرج من أمعائه مادة العنبر ، وهى مادة زيتية نصف صلبة تجمد فى البحر وتطفو ، وتستخدم فى صناعة العطور ذات القيمة العالية ، ولها استخدامات اخرى ، أنظر : ماكسويل ريد : قصة البحر ، ترجمة محمود محمد رمضان ، (القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٣) ص ٢٣٥ .
وفى حديث صاحب الاستبصار عن مدينة أودغست بين صحراء لمتونة وبلاد السودان يقول : « يجلب أيضاً منها العنبر الطيب لقربها من البحر المحيط » .
أنظر : الإستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول : تحقيق سعد زغلول عبدالحميد (بغداد ١٩٨٦) ص ٢١٦.

(٤٤) دعى حوت العنبر أو الحوت على اطلاقه فى عامية أهل الاندلس بلينة ومن شعرائهم ابن البلينة والكلمة من أصل لاتينى Balaena صارت فى القشتالية Ballena أنظر Simonet : Glosario p. 30

(٤٥) ص ٩٥.

تمتنع عن الحركة ، فيشق الناس جوفها ، ويستخرجون منه العنبر[٤٦] .

- 3 -

درج عدد من مؤرخى العرب وجغرافييهم على الإشارة إلى صنم قادس ، والمقصود به منارة قديمة ، يعلوها تمثال للبطل الرومانى هرقل Columnae Herculis ، أقيمت بجزيرة قادس Cadíz ، قرب التقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى ، وقد تهدمت هذه المنارة فى سنة ٥٤٥/١١٥٠ ـ ١١٥١ [٤٧].

كانت المنارة مؤشراً رمزيًا على عدم الإبحار غرباً ، ومع ذلك فقد تواترت فى الأساطير العربية أخبار عن عبور ذى القرنين مياه المضيق ، وتواترت أيضاً أخبار أخرى عن عبور آخر لأسعد أبى كرب الحميرى [٤٨] .

---

(٤٦) يحسن مراجعه الفصل الممتع عن العنبر والبال فى كتاب حسين فوزى : حديث السندباد القديم . (بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٧) ص ١٥٧ – ١٧٨) .

(٤٧) الحميرى : المصدر نفسه ص ٣٣ ، ٤٤٩ وانظر أيضاً المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ٦٨ .

(٤٨) الإدريسى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٠٤ ، الحميرى : المصدر نفسه ، ص ٥٥٩.

على إننا نعلم جيداً أن الفينيقيين عبروا هذا المضيق من غربه إلى شرقه ، فى رحلتهم من مصر إلى مصر ، عن طريق الإبحار حول إفريقية ، وقد وقعت هذه الرحلة فى زمن نيكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، واستغرقت ثلاث سنوات (٤٩) .

فى فترة لاحقة عبر الفينيقيون هذا المضيق من شرقه إلى غربه، فوصلوا إلى جزر كاناriاس (٥٠) وليست لدينا معلومات مؤكدة عن وصولهم إلى جزر ماديرا Madeira أو أثوريس .

بعد الفتح العربى للأندلس قام المسلمون بنشاط بحرى كبير، لكن هذا النشاط توجه على نحو أساسى إلى حوض البحر المتوسط الغربى ، ومعظم القواعد البحرية الأندلسية متوسطية ، وأهمها، ألمريَّة Almería ـ القاعدة الكبرى ـ طُرطوشة Tortosa ،

---

(٤٩) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلف الله وآخرين ، (القاهرة، دار المعارف ١٩٧٩) جـ١ ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٥٠) وقعت هذه الرحلة قبل سنة ٤٨٠ ق.م . وكان يقود الفينيقيين هانون Hannon ، وانتهى به المسير الى الرأس الاخضر Capo Verde ومصب نهرى السنغال وغامبيا . Oxford Classical Dict p. 487 وعند عودته إلى وطنه قرطاجة كتب تقريراً عن رحلته نقش على نصب بها ، وصلتنا صورة يونانية منه . سارتون المرجع نفسه جـ ٢ ، ص ١٤٩ـ١٥٠ . على أن الرواية التى وصلتنا بها قدر كبير من المبالغات ، فيرد بها أن الأسطول الفينيقى ضم ستين سفينة من ذوات الخمسين مجدافاً ، وحمل ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء .

الجزيرة الخضراء Algeciras ، مالقة Málaga ، لقنت Alicante ، دانية Dénia بلنسية Velencia ، قرطاجنة Cartag- ena وجبل طارق . فى حين أن أقلها تقع على البحر المحيط ، وأهمها أشبونة ، قصر أبى دانس Alcácer do Sal وشنتمريّة الغرب Santa María de Algarv

بيد إن لدينا خبراً ورد فى الحوليات الفرنجية عن سفينة كبيرة للغزاة المسلمين ، اقتحمت نهر اللوار حوالى سنة ٨٣٠م ، عند مصبه بخليج بسكاية Vizcaya الذى دعاه العرب بحر الأنقليشيين(٥١) .

وفى سنة ٢٦٦/٨٧٩ ـ ٨٨٠ وجه الأمير محمد (٢٣٨/٨٥٢ ـ ٢٧٣/٨٨٦) حملةً إلى جليقية Galicia من ناحية الغرب ، بقيادة عبد الملك بن مغيث ، لكنه عندما أوغل فى البحر المحيط ، تولته عواصف ورياح ، قطعت مراكبه ، وغرق معظمها ، ولم ينج سوى القائد وعدد قليل ممن معه (٥٢) .

---

(٥١) رينو ، جوزيف : الفتوحات الإسلامية فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا فى القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادى ، ترجمة اسماعيل العربى ، (بيروت ، دار الحداثة ١٩٨٤) ص ١٣٥ .

(٥٢) إبن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، (بيروت و دار الكتاب العربى ١٩٧٣) ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ ، إبن عذارى : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وفى سنة ٩٩٧/٣٨٧ جدد المسلمون محاولة غزو جليقية بحراً ، وكانت محاولةً ناجحةً هذه المرة ، فإبان حملة المنصور بن أبى عامر (٣٦٨/٩٧٨ ـ ٣٩٢/١٠٠٢) الثامنة والأربعين ـ وهى أشهر حملاته ـ أخرج أسطولاً كبيراً من قصر أبى دانس جنوبى أشبونة ، فسار إزاء الساحل إلى نهر دويُره Duero ، واقتحم مدينة بُرتقال Oporto مع الجيش البرى (٥٣) .

على أن أهم حافز دفع المسلمين إلى الواجهة الأطلسية كان غارات المجوس أو الأردمانيين ، ويقصد بهم الفايكنج Wikingos الذين اقتحموا مياه الأندلس الغربية ، وروعوا سكانها ، وتطرقوا منها الى مياه الأندلس الشرقية وثغور المغرب، وتعددت غزواتهم فى عهود عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦/٨٢٢ ـ ٢٣٨/٨٥٢) والأمير محمد وعبد الرحمن الناصر (٣٠٠/٩١٢ ـ ٣٥٠/٩٦١) والحكم المستنصر (٣٥٠/٩٦١ ـ ٣٦٦/٩٧٦) . واضطر هذا الأخير إبان غزوة سنة ٣٥٥/٩٦٦ إلى أن يجعل بعض مراكبه فى هيئة مراكبهم (٥٤) . وفى سنة ٣٦٠/٩٧١

---

(٥٣) إبن عذارى : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ ، المقرى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ .

(٥٤) إبن عذارى : المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٢٣٩ .

كان استعداد أسطول المسلمين مانعاً لهم من معاودة الغزاة (٥٥) .
وفى العام التالى أرسل الحكم حملةً إحتياطيةً إلى الساحل الغربى، انتهت الى شنترين Santarém ، وهناك تناهى إلى المسلمين عن طريق جواسيسهم أن المجوس نكصوا عن غزوهم (٥٦) .

- 4 -

لم يلبث المسلمون أن ارتادوا هذا البحر على نحو آخر ، ولدينا أخبار عن أربع رحلات ، تنسب اثنتان منهما إلى الأندلس، وتنسب اثنتان أخريان إلى المغرب وبلاد السودان .

أما عن الأندلس فلدينا رحلة خشخاش البحرى ، ولدينا أيضًا رحلة الإخوة المغررين ، وأقدم مصدر عن رحلة خشخاش هو المسعودى ..

يقول المسعودى (٥٧) فى معرض حديثه عن بحر أوقيانوس المحيط :

« وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة، قد أتينا على ذكرها فى كتابنا أخبار الزمان ،

---

(٥٥) إبن حيان : المقتبس ، تحقيق عبدالرحمن الحجى . (بيروت دار الثقافة ١٩٦٥) ص ٢٣-٢٤ ، إبن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٤١ .
(٥٦) إبن حيان : المصدر نفسه ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٥٧) مروج الذهب جـ ١، ص ١١٩ .

فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوه ، وأن منهم رجلاً من أهل الأندلس، يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها ، فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم مراكب استعدها فى هذا البحر المحيط ، فغاب فيه مدة ، ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس» .

لايتردد خبر خشخاش هذا إلا عند البكرى [٥٨] (ت ٤٩٦/ ١١٠٢) والحميرى [٥٩] (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) ، على إنه تترجح حقيقة هذا الخبر ، لأن المسعودى رحالة جاب آفاقاً واسعةً ، من ناحية أخرى ، فهو ليس بعيداً زمنياً عن وقت مغامرة خشخاش ، وهو يخبرنا بأنه ضمنها فى كتابه أخبار الزمان الذى يحدد تاريخ كتابته بسنة ٣٣٢ [٦٠] ، ومعنى ذلك أن رحلة خشخاش ، وقعت قبل هذا العام الذى يوافق سنة ٩٤٣م .

---

(٥٨) فى مؤنس : المرجع نفسه ، ص ١٣٩ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٥٢ ، ٥٠٩ .

(٦٠) مروج الذهب جـ ١ ، ص ١٧ . ويذهب خوان برنيط الى أن هذه الرحلة وقعت قبل سنة ٩٦٥م باعتباره تاريخ وفاة المسعودى ، وهو تحديد فضفاض على نحو ما . أنظر : هل هناك أصل عربى إسبانى لفن الخرائط البحرية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية (مدريد العدد الأول ١٩٥٣) ص٨٤ .

هناك خبر آخر يرد فى كتب الأندلسيين ، فإبان غزوة المجوس الثانية فى سنة ٨٥٩/٢٤٥ تصدى لهم أسطول المسلمين بقيادة خشخاش وابن شكوح رئيسى أسطول السلطان ، وأسفرت المعركة التى دارت ازاء شاطئ شذونة Medina Sidonia عن انتصار المسلمين واستشهاد خشخاش (٦١) .

نستطيع أن نربط بين الحادثتين ؛ حادثة مغامرة خشخاش فى البحر المحيط، وحادثة تصديه للمجوس واستشهاده ، ونفترض أن غزوة المجوس الأولى فى سنة ٢٢٩ ـ ٢٣٠هـ ، حفزت هذا المغامر الأندلسى ، على أن يتقصى من أين يأتى هؤلاء الغزاة ، فقام بهذه المغامرة عقب سنة ٢٣٠هـ ، وربما عاد منها بغنائم ، وبعد عودته صعد فى المناصب بأسطول الأمير الأموى ، إلى أن صار رئيساً له ، وتم تكليفه بالمشاركة فى التصدى للمجوس ، فى غزوتهم الثانية بعد خمس عشرة سنة ، وقد نجح فى المهمة التى أوكلت إليه ، مثلما نجح فى مغامرته السالفة ، وإن كانت الشهادة من نصيبه .

الرحلة الثانية والأشهر ، هى رحلة الأخوة المغررين أو المغرورين أو المغربين، وأقدم مصدر لها هو الشريف الإدريسى ،

---

(٦١) إبن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٣٠٩ ، إبن عذارى: المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٩٧ .

وقد ورد خبر هذه الرحلة ، فى معرض حديثه عن مدينة لشبونة (أشبونة) Lisboa .

يقول الإدريسى :[٦٢]

« ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا مافيه ، وإلى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكره ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع بمقربة الحمّة[٦٣] درب منسوب إليهم ، يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد . وذلك أنهم اجتمعوا كلهم أبناء عم ، فأنشئوا مركبًا حمّالاً ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح [٦٤] الشرقية ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ،

---

(٦٢) المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٥٤٨ - ٥٤٩ ، كما ورد خبر هذه الرحلة فى أبى حامد الغرناطى : المصدر نفسه ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ، الحميرى : المصدر نفسه ، ص ٦١ ، إبن الوردى : خريدة العجائب (نشر احمد البابى الحلبى ١٣٠٢هـ) ص ١٥-١٦ وتوجد قصة شبيهة فى الدمشقى : المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٦٣) أو الحامة ويقصد بها عين ماء حارة وظاهرة الحامات من الظواهر الشائعة فى الاندلس

(٦٤) هبوب الريح .

فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش(٦٥) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا مع البحر فى ناحية الجنوب إثنى عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولاتحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا فيها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وشجرة تين برى عليها ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرةً ، لايقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثنى عشر يومًا إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا مافيها ، فما كان غير بعيد ، حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها ، فرأوا فيها رجالاً شقراً زعراً شعور رءوسهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم ، أحضروا بين يدى الملك فسألهم عما سألهم الترجمان ،

---

(٦٥) الصخور التى يكاد لايسترها الماء .

فأخبروا بما أخبروا به الترجمان بالأمس ، من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولافائدة تجدى، ثم أمر الملك الترجمان أن يعد القوم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل ثم انصرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم وجرى بهم فى البحر برهةً من الدهر ، قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جئ بنا إلى البر ، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف وتركنا بالساحل ، إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس، ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاءً وأصوات ناس ، فصحنا بجملتنا، فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ! فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفى .. فسمى المكان إلى اليوم أسفى [(٦٦)] ، وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » .

(٦٦) « مرسى فى أقصى المغرب عليها عمارات وبشر كثير من البربر وهى آخر مرسى تبلغه المراكب من عند الأندلس ». الحميرى : المصدر نفسه ، ص ٥٧.

راود الشك عددا من الباحثين فى صحة هذه الرحلة ، وتناولها بالدراسة دى خويه ، وكشف فى تحليله عن أوجه شبه بينها وبين رحلة القديس براندان St. Brandan ويخرج إلى وجود مصدر مشترك للرحلتين [٦٧] .

على أن مايذهب إليه هؤلاء لايحسم هذه القضية ، وإن نوه إلى احتمال تأثير رحلة القديس برندان فى نسيج الأسطورة الخاصة برحلة المغررين .

---

(٦٧) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه جـ١ ، ص ١٣٧ ، وأنظر أيضاً زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : (بيروت ، دار الرائد العربى ١٩٨١) ص ٤٩-٥٠ . ورحلة القديس برندان Navigatio Sancti Brendani Abbatis تقترب فى شهرتها من قصة الملك آرثر وأغنية رولان ، ووجد من نصها المكتوب نحو مائة وعشرين نسخة ، ثلاث منها تعود إلى اوائل القرن الحادى عشر . وتحكى عن هذا القديس الإرلندى الذى عاش فى القرن السادس (ت ٥٧٨م) ورحلته صحبة أربعة عشر (أو سبعة عشر) راهباً فى البحر المحيط ، من أجل الوصول الى أرض الميعاد المقدسة Terrae Repromisionis Sanctorum وبعد معاناة مع البحر ، استغرقت أربعين يوماً ، وصلوا الى جزيرة، انتقلوا منها إلى جزائر أخرى ، واستغرقت تنقلاتهم سبع سنوات ، صادفوا خلالها عجائب شتى ، إلى أن حطت رحالهم بالجزيرة الموعودة ثم آبوا الى بلادهم .
Samuel Eliot Morison : The European Discovery of America (N.Y. Oxford University Press, 1971) pp. 13-31.

نزعم إن مايرويه الإدريسى هنا حقيقى ، وإن التبس به قدر من الخيال ، فثمة اتفاق ابتداءً بين الباحثين على أن أحسن أقسام كتابه ، هو القسم الخاص بالمغرب والأندلس وبلاد السودان، وهو القسم الذى نشره دوزى (ت ١٨٨٣) ودى خويه[٦٨] (ت. ١٩٠٩) ثم إنه أندلسى على نحو أو آخر ، من حيث اتصال نسبه بالحموديين خلفاء الأندلس وأمرائها ، وهو وإن ولد فى سبتة ، فقد تنقل فى أقطارٍ واسعة ، وزار الأندلس ، وأقام بها فترة قبل أن يستدعيه رُجار (٥٠٦ / ١١١٢ - ١١٥٤/٥٤٩) ملك صقلية ، وكانت أشبونة اذ ذاك فى أيدى المسلمين ، ولم تسقط فى أيدى النصارى إلا فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ .

مما يؤكد صحة هذه الرواية ذكر الإدريسى لدرب منسوب إلى هؤلاء المغامرين بمدينة لشبونة قرب الحمة . يعرف بدرب المغررين، ومما يؤكده أيضاً وجود الترجمان الذى يعرف لغة الوطنيين ، ويعرف اللغة العربية ، وهو أمر طبيعى بحكم اقتراب جزر كانارياس من الواجهة الأطلسية لبلاد المغرب .

---

(٦٨) راجع فى هذا الشأن كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، ق ١ ، ص ٢٨٥ ، ومابعدها .

ويترجح لدينا ما يذهب اليه مؤنس [٦٩] من أن الجزيرة الأولى إحدى جزر أثوريس ، والجزيرة الثانية إحدى جزر كانارياس ، وإن ذهب سارتون [٧٠] إلى أنه ربما كانت الجزيرة الأولى جزيرة ماديرا والجزيرة الثانية إحدى جزر كانارياس .

واذا كان هؤلاء المغامرون الأندلسيون قد حلوا بجزيرة تدعى جزيرة الغنم ، فقد جرت عادة الملاحين العرب على أن يطلقوا أغناماً حيةً بالجزر التى تقع فى طريقهم فتتوالد وتصير حقاً مشاعاً لهم ولغيرهم من الملاحين الذين ترسو سفنهم بهذه الجزر بعدهم [٧١] .

وتتفق رواية الإدريسى مع مايقرره الجغرافيون المحدثون وعلماء الأنثروبولوجيا من أن الجوانتشاس Gwan'chás سكان كانارياس الأصليين، يتشابهون فى الخصائص العرقية مع بربر المغرب ، من حيث استدارة الرءوس واستعراض الجباه وتوافر الشقرة فيهم ، وإن كان غالبهم ذوى شعر أسود وعيون سوداء [٧٢] .

---

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ٢٧٦ .

(70) Sarton G. : Introduction to the history of Science Part II vol p. 1062.

(٧١) أنور عبدالعليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب . (الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة ١٩٧٩) ص ٣٧ ، حاشية ١ .

(72) Encyclopaedia Americana, vol XIII p. 51.

أما عن تاريخ هذه الرحلة ، فيذهب خوان برنيط [٧٣] إلى أنها وقعت فى سنة ١٠٣١ م وهو ما يعادل سنة ٤٢٢هـ سنة سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .

ثمة نتيجة هامة نخرج بها من رحلة المغررين ، هى إن العرب سبقوا الأوربيين فى الوصول إلى جزر أثوريس وكانارياس ، وهى خطوة هامـــة على الطريق إلى العــالم الجــديد ، والمعلوم أن البرتغاليين وصلوا إلى كانارياس فى سنة ١٣٤١م ، كما أنهم وصلوا إلى أثوريس فى سنة ١٤٢٧م [٧٤] .

الرحلتان التاليتان تنسبان إلى مغاربة أو سودانيين ، فيذكر ابن سعيد [٧٥] من مصادره ابن فاطمة [٧٦] ، الذى لانعرف عنه الكثير [٧٧] ، حتى إن اسمه منقوص ، وقد ألف كتاباً لم يصل

---

(٧٣) المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(74) Webster's New Geographical Dictionary, (Massachusetts 1984) p. 214.

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١١١ – ١١٢ ، وانظر ايضاً خوان برنيط : المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٧٦) تتواتر النسبة إلى الأمهات فى الدولة المرابطية ومن قوادها المشهورين إبن غانيّة وإبن عائشة

(٧٧) يحدد خوان برنيط وفاته بسنة ١٣٣١/٧٣١ ، وهو تحديد غير صحيح ، لأن ابن سعيد الذى مات قبله (١٢٨٦/٦٨٥) ينقل عنه .

إلينا ، ويتضح من نقول ابن سعيد أنه أبحر فى بحر الظلمات من نول لمطة ، وهى مدينة من السودان ، قريبة مما يعرف فى الجغرافيا الحديثة بالرأس الأبيض Cabo Blanco ، وكاد يهلك فى سفرته هذه ، ويحتمل أنه جاوز هذه الرأس ، فدار حول إفريقية ، لأنه يصف ساحلها الشرقى عند سُفالة ومَلَنْدة ومَقْدشو(٧٨) ، وصف من شاهد ورأى ، وليس وصف من قرأ ، ولايخفى أن ابن فاطمة ربما كان الجغرافى المسلم الوحيد الذى أعطى الإقليم الثامن جنوبى خط الاستواء اهتمامًا لم يحظ به عند غيره من الجغرافيين المسلمين (٧٩) ، كما إنه زار مملكة الكانم ، ووصف نهر كَوْكَو - وهو النيجر - وكيف أنه يمتد نحو ثلاثة آلاف ميل ، بسبب تعريجاته حتى مصبه (٨٠) فيما يعرف اليوم بخليج غينيا .

الأشهر من هذه الرحلة الحقيقية رحلة أخرى خيالية ، قام بها أحد ملوك مالى فى بلاد السودان ، وقد ورد خبر عنها فى صبح الأعشى (٨١) ، فلدى زيارة منساموسى بن أبى بكر لمصر

---

(٧٨) ابن سعيد : المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٨٢ - ٨٤ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٨١) القلقشندى : (القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٦٤) جـ٥ ، ص ٢٩٤، ٢٩٥ .

فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون (١٣١٢/٧١٢ - ١٣٣٧/٧٣٨) فى سنة ١٣٢٤/٧٢٤ سأله مرافقه الأمير أبو الحسن على ، عن سبب انتقال الملك إليه ، فقال : إن السلطان قبله كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مائتى سفينة، شحنها بالرجال والأزواد ، وأمرهم ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدةً ثم عادت سفينة واحدة ، لتخبر عن غرق سائر السفن فى لجة بحرية ، فجهز السلطان ألفى سفينة ، ألف للرجال وألف للأزواد ، ورحل بنفسه مع هذا الأسطول ولم يعد .

هذه القصة التى ينقله بعض الباحثين المحدثين (٨٢) مصدقين لها ، بل ويحددون تاريخها بسنة ١٣٠٧م نستبعدها ، فلم يعرف عن ملوك مالى أنهم كانوا قوةً بحريةً يعتد بها ، والدول

---

(٨٢) شاكر مصطفى : من اكتشف أمريكا ، (مقال فى جامعة الكويت والمجتمع ٦٧ - ١٩٦٨، ص ١٦ - ٢١ ، عن محمد رشيد الفيل : أثر التجارة والرحلة فى تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب . بحوث المؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول ، مجلد ٣ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٩٨٤) ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .
السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، (الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨١) جـ٢ ، ص ١٩١ ، وانظر أيضاً خوان برنيط ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦.

الإسلامية التى قامت فى غربى إفريقية ـ أى فى بلاد السودان ـ كان توجهها نحو الداخل ، ونهضت بها عناصر صحراوية، ومدينة مالى ـ وهى قصبة الدولة ـ كانت تقع إلى الداخل عند أعالى نهر النيجر ، وليس لدى الجهات الدنيا منه ، وابن بطوطة (ت ٧٧٠/ ١٣٦٨ ـ ١٣٦٩) الذى زار مالى بعد سنوات قليلة من هذه الرحلة المزعومة [٨٣] ، وأقام بها شهوراً عدة ، لايأتى ـ وهو الرحالة الكبير ـ بخبر واحد عنها .

- 5 -

ننتقل الآن إلى قضية القضايا ... وهى هل وصل العرب إلى أمريكا قبل كولمبوس ؟

بداءةً ليس لدينا ـ حتى الآن ـ نص قاطع يشير إلى رحلة قام بها العرب إلى أمريكا ، وأقوى مالدينا من نصوص منطقاً ، وهو النص الخاص بالإخوة المغررين ، يوضح أنهم لم يتعدوا فى الغالب جزر أثوريس غرباً .

---

(٨٣) زار ابن بطوطة مالى فى الفترة من شعبان ٧٥٣ / ١٣٥١ إلى ربيع الأول ٧٥٤ / ١٣٥٢ . راجع تحفة النظار ، تحقيق على المنتصر الكتانى . (بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٥) جـ٢ ، ص ٧٧٦ ومابعدها .

لكن عدم وجود نص ينوه إلى حقيقة ، ليس معناه أن ليس ثمة حقيقة .

فى سنة ١٩١٩ فتح أحمد زكى باشا [٨٤] الباب لمناقشة هذه القضية ، وإن لم يصل إلى رأى محدد بشأنها ، وفى سنة ١٩٤٥ نشر الأب أنستاس مارى الكرملى (ت ١٩٤٧م) مقالا[٨٥] ذهب فيه إلى أن العرب عرفوا تيار الخليج الدافئ [٨٦] ، وكانوا يستعينون به فى رحلة ذهابهم إلى المكسيك وأوبهم منها ، ويستدل من أسماء بعض الحيوانات المتوطنة هناك على الأصل

---

(84) Une Seconde tentative des Musulmans pour découvrir l'Amerique, Bulletin de l'institut d'Egypte vol II 1919-1920. pp. 57-59.

(٨٥) عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب ، مجلة المقتطف (العدد ٢ ، المجلد ١٠٦ ، فبراير ١٩٤٥) .

(٨٦) يبدأ هذا التيار الدائرى الحار من خليج المكسيك بعرض قدره خمسون ميلاً وعمق قدرة ألفا قدم ، ويسير فى اتجاه السواحل الشمالية الغربية لأوربا فيدفئها ، ثم ينحنى فيلاقى سواحل إيبيريا ثم سواحل إفريقيا الغربية ، ويقترب من سواحل أمريكا الجنوبية ، إلى أن ينتهى مرةً أخرى فى خليج المكسيك ، وتتضح فائدته للملاحة من أن سرعته تصل الى أربعة أميال فى الجنوب وبين عشرة أميال الى خمسة عشر فى الشمال .
Webster's Geographical Dict p. 476.

العربى لهذا الأسماء ، ويذكر أن كولمبوس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذى يخلط به أهل غانة وبالنسبة نفسها .

ربما كان صحيحاً مايذهب إليه الأب الجليل ، ولكن ليس لدينا ولا لديه نص بشأنه ، ثم إن تيار الخليج لم تتضح فائدته للملاحة ، ولم يظهر على الخرائط الملاحية ، قبل أواخر القرن الثامن عشر الميلادى (٨٧) . وإذا كان العرب قد عرفوا هذا التيار فكان جديراً بهم أن ينوهوا إليه ، مثلما نوهوا إلى التيارات التى عرفوها فى بحر فارس ، وغيره من البحور المطروقة عندهم ، ثم إن تشابه بعض الألفاظ أو أنماط الحياة ، ليس معياراً ثابتاً ، وربما كان مصدر هذا التشابه هو النشوء المستقل .

وجدت نظرية هذا العالم اللغوى الكبير صدىً فيمن أتى بعده من الباحثين العرب ، ومنهم شاكر مصطفى (ت ١٩٩٧م)(٨٨)، ونجيب البهبيتى (٨٩)، ومايذهبون إليه لايخرج ـ فى رأينا ـ عن

---

(٨٧) مكسويل ريد : المرجع نفسه ، ص ٧٩ .

(٨٨) المرجع نفسه ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(٨٩) الملحمة العربية الأولى ؛ أو عند جذور التاريخ قسمان (ط١ ، الدار البيضاء، دار الثقافة ١٩٨١) .

تعسف فى تأويل النصوص بهدف الوصول إلى نتائج ربما كانت مقررةً سلفاً (٩٠) .

على أننا من ناحيتنا نتناول هذه القضية على نحو مختلف ، فلدينا قرائن تدل على مساهمة العرب - علمياً - فى الوصول إلى أمريكا وهى قرائن ثابتة.

الأرض كروية ، حقيقة وقف عليها اليونان فى القديم ، وأخذ العرب بهذه الحقيقة ، فى حين لم تصبح كذلك عند الأوربيين إلا فى عصر النهضة .

يتفق الجغرافيون العرب على أن الأرض مدورة كتدوير الكرة، موضوعة فى جوف الفلك كالمحّة فى جوف البيضة ، ويدلل ابن رُستة (٩١) (ت أوائل القرن الرابع الهجرى) ، على ذلك بأن الشمس والقمر وسائر الكواكب لاتطلع فى وقت واحد ، ولاتغرب فى وقت واحد فى جميع الأرضين . ويقول المسعودى(٩٢) : «إن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين ، كان

---

(٩٠) من ذلك زعم البهبيتى أن يوكاتان (فى أمريكا الوسطى) تحريف ليقطان أو قحطان ق ٢ ، ص ١٥٥ والأزتيك Aztecs هم الأزد القبيلة اليمانية ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٩١) الأعلاق النفيسة ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٩٢) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٨٦ .

طلوعها على الجزائر العامرة (الخالدات) المذكورة التى فى بحر أوقيانوس الغربى ، وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين» .

كروية الأرض إذن قضية محسومة عند العرب ، لكن هل كانت هذه الكروية تعنى وجود أرض فى مكان ما بين هذه الجزائر العامرة والصين؟؟

يمضى بنا البيرونى (٩٣) (ت حوالى ١٠٤٩/٤٤٠) خطوةً أبعد ، فيصف البحر المحيط بأنه «قاطع بين هذه المعمورة ، وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر فى الجهتين من بر أو عمارة فى جزيرة ، اذ ليس بمسلوك من ظلام الهواء ومن غلظ الماء ومن اضطراب الطرق وعظم الغرر ، مع عدم العائدة، ولذلك عمل الأوائل فيه وفى سواحله علامات تمنع من سلوكه» .

على أن أبا الثناء محمود بن أبى القاسم البغدادى (ت ١٣٤٨/٧٤٩) يمضى بنا خطوةً أخرى أبعد ، فيرفض النظرية اليونانية التى تجعل المعمور قصراً على قسم معين من الكرة الأرضية ويقول : (٩٤)

---

(٩٣) تحقيق ماللهند من مقولة ط ٢ ، (بيروت ، عالم الكتب ١٩٨٣) ص١٣٩ .

(٩٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأعصار جـ١ ، تحقيق أحمد زكى باشا (القاهرة ، دار الكتب ١٩٢٤) ص ٣١ .

«لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن ، مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى» .

يلاحظ أن أبا الثناء تخيل وجود أرض فى مكان ما إلى الغرب ، فى حين أن كولمبوس تخيل - فقط - طريقاً فى مكان ما إلى الغرب يؤدى إلى الهند[٩٥] .

العرب إذن كانوا على دراية باحتمال وجود أرض وراء هذا المحيط غرباً ، وهى خطوة كبيرة على الطريق إلى العالم الجديد .

لايبعد أن تعود تلك الدارية - من وجه - إلى الفايكنج .

سبق وذكرنا إنه دارت صراعات بين المسلمين بالأندلس وبين من دعوهم بالمجوس ، وكانت نهاية هذه الصراعات سقوط بربشتر Barbastro فى أيديهم فى سنة ١٠٦٤/٤٥٦ وإن عادت إلى المسلمين فى العام التالى[٩٦] .

---

(٩٥) محمد بهجة الأثرى : الجغرافيا عند المسلمين والشريف الادريسى ، مقال فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، (المجلد الثانى ١٩٥٢) ص ٦٢ .

(٩٦) ابن بسّام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار الثقافة ١٩٧٩) م٣ جـ١ ، ص ١٧٩-١٩٠ .

كانت هذه الصراعات تسفر أحياناً عن أسر بعض هؤلاء الشماليين وإسلامهم ، واندماجهم فى طائفة الموالى الصقالبة ، وصارت لهم مستوطنة زاهرة جنوبى اشبيلية ، حيث اشتغلوا بتربية المواشى وصناعة الألبان ، وصاروا ينتجون أنواعاً جيدةً من الجبن(٩٧) .

والمعروف أن المجوس أو الفايكنج شاهدوا أيسلندة لأول مرة فى سنة ٨٦٠م وبدأو يستوطنونها فى سنة ٨٧٠ ، وفى سنة ٩٨١ أو ٩٨٢ وصل أيريك Eirik الأحمر إلى جرينلندة ، وبدأ استيطانها بعد خمس سنوات ، وحوالى سنة ١٠٠٠م وصل لايف Leif المحظوظ ابن أيريك الأحمر إلى العالم الجديد ، واستوطن منطقة دعيت بفاينلاند Vinland أى أرض الكروم ، ويرجح إنها نيوفونلاند (٩٨) .

هل استفز المجوس كوامن المعرفة عند المسلمين ؟

سؤال فى حاجة إلى جواب !!

---

(97) Lévi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane. (Leiden 1950) t. 2 p. 224.

(98) The Vinland Sagas. Trans by Magnusson & Palsson. (Penguin 1973) pp. 7-18, see also: Sarton : Op. cit. vol I, pp. 675 - 676 .

ونعاود مرةً أخرى موضوعنا .

الجدير بالذكر أن بعض معارف العرب العلمية وصلت إلى الإسبان ، وتوجد بدير الإسكوريال خريطة للعالم مجهولة المؤلف، تعود إلى ماقبل سنة ١١٩٢/٥٨٨ وينسبها الغزيرى إلى أبى على ابن الزيات الإشبيلى ، وتوضح هذه الخريطة ما يعرفه العرب عن بحر الظلمات ، ويظهر فيها خليج غينيا بوضوح [٩٩] .

الأكثر من هذا فقبل أن يولد كولمبوس بسنوات طويلة صنف بطرس الألياكى Petrus de Aliaco (ت ١٤٢٠) [١٠٠] رسالةً دعاها صورة الدنيا Imago Mundi عاود فى كتابتها مراجع عربية ، وضمت خريطةً موضحاً بها أن للدنيا مركزاً فى نصفها الشرقى ومركزاً آخر فى نصفها الغربى[١٠١] .

---

(99) Casiri, Michaelis : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis, (Matriti, Antonius Perez de soto imprimebat 1760). Tomus exterior p. 4.

(١٠٠) أو بطرس الأيلى Pierre d'Ailly (١٣٥٠-١٤٢٠) لاهوتى وفلكى فرنسى صار أسقفاً لكمبراى Cambrai فى سنة ١٣٩٧، ثم كردينالاً فى سنة ١٤١١ .

Dict of Scientific Biography vol X, p. 84.

(١٠١) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٧٤ .

كـانت صـورة الدنيـا من المصـادر التى شكلت ثقـافـة كولمبوس[١٠٢] ، كما إن هناك مصادر أخرى عربية أشار إليها ضمناً فى كتابه إلى الملكين الكاثوليكيين فى سنة ١٥٠١[١٠٣]

- 6 -

عرف العرب المحيط الأطلسى ببحر الظلمات ، ومع ما أحاط بهذا البحر من غموض ، الا أن العرب استطاعوا التعرف إلى بعض خصائصه ، وغامروا باقتحامه فى غير موضع بجهد الدولة .

لكن العرب غامروا أيضاً باقتحام هذا البحر بجهد أفراد .. وأشهر هذه المغامرات مغامرة الإخوة المغررين الذين انتهى بهم المطاف إلى بعض جزائره .

أما عن المقولة الخاصة بوصول العرب إلى أمريكا قبل كولمبوس ، فهى ـ حتى الآن ـ غير ثابتة ، والثابت فقط إن العرب وما وصل إليه علمهم بهذا البحر كانوا عوناً لكولمبوس وغيره من الرواد .

---

(١٠٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(103) Ferdinand Columbus : The life of the admiral Christopher Columbus. trans by Keen. (Rutjers University Press 1959) p. 10.

الفصل الثانى

الملاحة البحرية العُمانية
وصلتها بالكشوف الجغرافية

ترتبط الكشوف الجغرافية فى البحار الشرقية بمرحلة زمانية معينة، هى نهايات القرن الخامس عشر الميلادى ، وبشعب أوربى معين هو البرتغاليون .

والحقيقة إن تعبير الكشوف الجغرافية تعبير نسبى ، فهو يفترض ـ بداءةً ـ أن ثمة مجهولاً ثم كشف حجبه .

لكن السؤال الذى يطرح نفسه ... مجهول بالنسبة لمن ؟

وقع الحال يدلنا على أن الغرب كشف عن شىء ، كان مجهولاً بالنسبة له، لكنه لم يكن مجهولاً بالنسبة لغيره .

هذه واحدة .

الثانية .. إن ولوج البرتغاليين إلى البحار الشرقية ، وما أسفر عنه من كشوف جغرافية ، حقيق بأن ينسب إلى الغرب وإلى

(*) يقصد بعُمان فى هذا البحث ، ماكان مقصوداً بها فى كتب الجغرافية العربية، أى القسم من شبه الجزيرة العربية ، الذى يشتمل على ما يعرف اليوم بسلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة .

العرب فى آن واحد .. فلولا العرب ـ والعمانيون منهم ـ ما تحقق للبرتغاليين أن يتموا هذه الكشوف على النحو الذى تناهى إلينا وخبرناه .

- 1 -

- من الأوهام الشائعة عن العرب ، عزوفهم عن ركوب البحر ، أو عدم درايتهم الواسعة به ، خصوصاً فى المرحلة السابقة للإسلام.

يقول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) (١) :

«والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرةً فى ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ، ومرباهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته » .

إذا نحن راجعنا تراثنا الشعرى قبل الإسلام ، نجد أن الصواب جانب مفكرنا الكبير فى هذه المقولة ، فالشعراء الذين عاشوا فى إقليم العروض ـ وهو البحرين واليمامة وعمان ـ وصف بعضهم البحر ، واستعانوا به فى أغراضهم الشعرية وصورهم (٢) .

---

(١) المقدمة ط ٣ ، تحقيق على عبدالواحد وافى ، القاهرة ، نهضة مصر ١٩٨١ ، جـ٢ ، ص ٦٩٠ .

(٢) راجع مايرد فى هذا الشأن بالفصل الثالث من كتابنا .

يرتبط النشاط البحرى للعرب قبل الإسلام وإلى حد بعيد بعد الإسلام ببحر فارس [٣] ، فبحر القلزم [٤] ، تحيط به فى قسمه الشمالى صحراء فقيرة ، وتتخلله شعاب مرجانية تقف عقبة كئوداً فى سبيل الملاحة وتعين على القرصنة ، ثم إن الرياح الشمالية تهب جنوباً طول العام [٥] .. لذلك درج عرب الحجاز على التنقل براً إلى الشام وإلى اليمن ، ولم تكن الشعيبة ميناءً ذا أهمية كبيرة عند سكان مكة .

إذا نحن انتقلنا إلى بحر فارس ، نجد أنه بموقعه فى قلب العالم القديم ، ثم بتعرجاته ومياهه العميقة وخلجانه [٦] ، أعان على قيام الموانى الطبيعية المحمية التى أفادت من الرياح الموسمية فى دفع السفن إليها صيفاً ، وفى دفعها منها شتاءً .

على أن هذه المزايا تتفاوت من موقع إلى آخر على هذا البحر ، وتقل كلما اتجهنا شمالاً ، بحيث تصير الملاحة متعذرةً إلا للقوارب الصغيرة ، وتتحول الرياح عند قطر إلى شمالية عاتية فضلاً عن الأعاصير [٧] ، كما أن البحرين تحيط بها الشعاب

---

(٣) أى الخليج العربى .

(٤) أى البحر الأحمر .

(٥) جورج فاضلو حورانى . العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، الانجلو المصرية ١٩٥٨ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٦) محمد متولى : حوض الخليج ، القاهرة ، الانجلو المصرية ١٩٨١ ، جـ١ ، ص ٤٤ .

(٧) المرجع نفسه جـ١ ، ص ٣٤١ .

المرجانية من كل جانب [٨] ، وفى أقصى الشمال كانت الملاحة تعانى من تغير مصب النهر ، واختلاف موقع البحر ، وتراكم الإرسابات والملاحات ، مما كان يؤثر على كفاءة البصرة كميناء ، ويدفع الناس إلى أن يوقدوا النار ليلاً ، خوفاً على المراكب الواردة من العطب [٩] .

نستطيع أن نتلمس آثاراً لهذه الظاهرة في القصص البحرية العربية ، وماورد بها من أخبار عن جبلى كُسَيْر وعُوَيْر اللذين يعترضان البحر إزاء شبه جزيرة مسندم ، والمضيق بينهما تسلكه السفن الصغار دون غيرها [١٠] وكثيراً ماكانت هذه السفن تواجه دوامات بحريةً قرب هذين الجبلين ، تدور به حتى تتلف[١١] .

على ذلك تركزت الملاحة ـ خاصةً بالنسبة للسفن الكبيرة ـ

---

(٨) المرجع نفسه جـ ٢ ، ص ٥٠٦ .

(٩) المسعودى : مروج الذهب . تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد (بيروت ، دار المعرفة ١٩٨١) جـ١ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٦ ، وأنظر أيضاً : الإصطخرى : المسالك والممالك . تحقيق محمد جابر عبدالعال الحينى . (القاهرة ، دار القلم ١٩٦١) ص ٣٠ .

(١٠) أخبار الصين والهند . نشر سوفاجيه (باريس ١٩٤٨) ص ٧ ، وانظر أيضاً ياقوت الحموى: المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٥٠ .

(١١) الإدريسى : نزهة المشتاق ، تحقيق تشيرولى وآخرين . (روما ١٩٧٠ ـ ١٩٨٤) جـ٢ ، ص ١٦٤ .

فى القسم الجنوبى من هذا البحر المصاقب لبحر الهند . وقد نشأت حول هذا القسم موانى عديدة ، أهمها سيراف (ثم قيس فهرمز) على جانبه الشرقى ، وصُحار (ثم مَسْقَط) على جانبه الغربى .

على إنه مما تجب ملاحظته أن موانى الجانب الشرقى من هذا البحر ، كانت تضم فى معظم عصورها جماعات عمانية كبيرة[١٢] ، ينتسب بعضها إلى آل الجُلَنْدَى ملوك عمان فى القديم ، بل كانت الأسرة الحاكمة فى مملكة هرمز تنتمى إلى أرومة عربية خالصة[١٣] .

أعان على توجه عمان البحرى تطرفها النسبى بالجزيرة العربية، وصعوبة الوصول إليها ، بسبب رمال الربع الخالى ، بل إن الاتصال بينها وبين البحرين القريبة منها ، لم يكن يتم فى الغالب إلا عن طريق البحر[١٤] .

---

(١٢) الإصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٥ . وهو يجعل فى جملتهم عمرو ابن الليث الصفار منشئ الدولة الصفارية بفارس ، وأنظر أيضاً : ابن بطوطة : تحفة النظار ، ط٤ . تحقيق على المنتصر الكتانى . (بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٥) جـ١ ، ص ٣٠٤ .

(١٣) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، (القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٨٥) ص ٥٣ .

(١٤) إبن حوقل : صورة الارض (بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٧٩) ص ٤٧ ، الإصطخرى : المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

أدى هذا الموقع إلى أن تلعب عمان دوراً أساسياً فى تجارة المرور بين الأقطار المجاورة لها من ناحية ، وبين الشرق الأقصى والساحل الإفريقى من ناحية أخرى ، وكانت عمان محطةً رئيسيةً فى طريق اليهود الراذانية الذين كانوا يبدأون رحلتهم من فرنجة ، فيصلون إلى أقصى المشرق [١٥] .

كذلك فإن ماتوافر لعمان من موارد ذاتية ، أعانها على أن تساهم فى هذه التجارة بسلع اشتهرت بها ، وأخصها اللّبان من ظفار ، واللؤلؤ من بحر فارس. ويحكى صاحب عجائب الهند [١٦] أن عمانياً اسمه مسلم بن بشر استخرج لؤلؤةً عرفت باليتيمة ، وباعها للخليفة الرشيد (١٧٠/٧٨٦ – ١٩٣/٨٠٩) بسبعين ألف درهم ، وباع له أخرى بثلاثين ألفاً ، وعاد إلى بلده عمان بمائة ألف ، فصارت له دار عظيمة وضياع .

فى ضوء ذلك عرف العمانيون بمغامراتهم البحرية التى وصلت بهم إلى أنحاء قاصية من المعمورة ، ولم يكتفوا بالبحار المتصلة ببلادهم ، إنما اجتازوا إلى البحر الخزرى (بحر قزوين)[١٧] وهو بحر مغلق بعيد عن بلادهم .

---

(١٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك . (ليدن ، بريل ١٩٦٧) ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(١٦) (القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٠٨) عن طبعة بريل ، ليدن ١٨٨٣ ، ص ١٠١–١٠٣ .

(١٧) المسعودى : التنبيه والاشراف . (ليدن ، بريل ١٩٦٧) ص ٧٠–٧١ .

وينوه المسعودى (ت٣٤٥/٩٦٥) [١٨] إلى الأهوال التى صادفها بنفسه والتى سمع بها من العمانيين عن بحر الزّنج ، وفى المرتين اللتين زار خلالهما جزيرة قنْبَلو (مدغشقر) هلك عدة من رفاقه .

نستطيع أن نأخذ فكرةً طيبةً عن مدى هذا النشاط البحرى ، إذا راجعنا كتاب عجائب الهند لبُزُرگ بن شهريار [١٩] ، ففيه أربع وعشرون قصة بحرية ، يرويها عمانيون ، أو إن أبطالها عمانيون ، أو إن لعمان صلة بها .

الجدير بالذكر أن هذا النشاط البحرى اجتذب إلى عمان كثيرين من غير أهلها ، وخاصةً اليهود ، وأحدهم ـ واسمه إسحق ـ إرتحل إلى الهند ومعه مائتا دينار ، فغاب ثلاثين سنةً ، وعاد فى

---

(١٨) مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(١٩) وقد ألف حوالى سنة ٣٤٢ /٩٥٣ ومعظم قصصه تدور بين سنتى ٢٨٨/٩٩٠ ، ٣٤٢/٩٥٣ ، ومسرحها بحار الهند والصين وبلاد الزنج . أما أخبار الهند والصين فقد دونها فى بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أبوزيد حسن السيرافى ، وتضم أيضاً روايات لسليمان التاجر وابن وهب القرشى ، وقد التقى المسعودى بأبى زيد فى سنة ٣٠٣/٩١٦ وأخذ عنه. كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى . ترجمة صلاح الدين هاشم (القاهرة ، لجنة التأليف ١٩٦٣) جـ١ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

سنة ٣٠٠ هـ ومعه مركب ، وكل مافيه يمتلكه ، فقاطع صاحب عمان أحمد بن هلال عن المركب ، لئلا يحصى مافيه(٢٠) .

وجد هذا النشاط صداه فى الفقه الاباضى ــ وهو الفقه السائد فى عمان ــ لأن غياب التجار فترات طويلةً خارج وطنهم ، نتجت عنه مشكلات تتصل بالزكاة والجزية وعشور التجارة . وأفتى محمد ابن محبوب بن الرحيل فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى بأن التجار المسلمين من أهل عمان الذين يخرجون بأموالهم للتجارة سنين ثم يعودون ، ولم يكونوا قد أدوا الزكاة، فإنهم يؤدونها عند وصولهم ، وأمر الإمام المهنا بن جَيْفَر اليَحْمَدى (٢٢٦/٨٤٠ – ٢٣٧/٨٥١) بأن يكون والى صحار هو المسئول عن أخذ زكاتهم ، ولم تكن الزكاة تؤخذ ممن يأتى بعنبر أو لؤلؤ ، كما إنها لم تكن تؤخذ من التجار المسلمين من غير أهل عمان الذين يمرون بها فى طريقهم إلى بلادهم (٢١) .

---

(٢٠) عجائب الهند ، ص ٨٠ .

(٢١) ابن جعفر الأزكوى : الجامع ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨١) ص ١٣١ ــ ١٤٠ .

أما أهل الذمة الذين كانو يختلفون إلى عمان من سيراف وغيرها مرةً فى كل شهر أو أكثر ، ثم يعودون إلى بلادهم ، فإنهم لم تكن تؤخذ منهم جزية، حتى يتموا فى عمان ثلاثة شهور[٢٢] .

-2-

فى تاريخ غير معلوم ، لكنه يسبق الإسلام بقرون مديدة درج العمانيون على ابتناء سفن من خشب الساج [٢٣] ، يخيطون ألواحها بحبال مصنوعة من لحاء شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يطلون قيعانها بالشحوم .

وظاهرة عدم استخدام المسامير فى تثبيت الألواح لفتت انتباه الغربيين منذ صاحب كتاب الطواف حول البحر الإرترى Periplus Maris Erythraei[٢٤] حتى ماركو بولو Marco Polo [٢٥] . وحاول المسعودى[٢٦] أن يتوصل إلى تفسير لها ، بأن

(٢٢) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٢٣) خشب الساج هو أنفس أنواع الخشب المعروفة ، فهو شديد الاحتمال ، لاينشق ولايتشقق ولايتقلص ولايتغير شكله ، وله مرونة كبيرة ، وهو عظيم النماء فى جنوبى الهند . وكان يستورد فى الزمن القديم إلى الخليج العربى . حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢٤) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٥١ .

(٢٥) رحلاته : ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧) ص ٥٨

(٢٦) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

مياه البحر الحبشي تذيب الحديد ، وربما يقصد الجغرافي الكبير الرطوبة ، ولايبعد أن يكون السبب هو الشعاب المرجانية[٢٧] .

عرف العرب سر الرياح الموسمية ، فأعانتهم على الملاحة إلى أقصى المشرق ، وإلى الساحل الافريقي ، ولم يتم اكتشاف هذه الرياح من قبل الأوربيين إلا في سنة ٤٥م عل يدى هيپالوس Hippalus اليوناني الذى عاش في زمن الامبراطور كلاوديوس Claudius (٤١ـ٥٤م) [٢٨] وإن مال بعض الباحثين إلى تعيين تاريخ أقدم ، يصل إلى العصر البطلمي المتأخر[٢٩] .

ليست لدينا معلومات وافرة عن النشاط البحرى لعمان في العصور السابقة للإسلام ، لكن كتاب البريلوس الذى يعود إلى أواخر القرن الأول الميلادى يشير إلى هذا النشاط الذى شاركهم

---

(٢٧) أنور عبدالعليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب . (الكويت ، المجلس الوطني للثقافة ١٩٧٩) ص ٨٥ ـ ٨٦ . يؤيد ذلك مايذكره ابن بطوطة من «أن ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، واذا كان مخيطاً بالحبال، أعطى الرطوبة فلم ينكسر» المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٥٨ .

(28) Ingrams, W.H: Zanzibar, its history and is people (London Frank Cass & Co, 1967) p. 59.

(29) Chittick, Neville : The Coast before the arrival of the Portogues, in Zamani, A survey of East African history. (Nairoby, Longman 1980) p. 102.

فيه إخوانهم من حَضْرَمَوت واليمن . ويصف الكتاب الملاحة جنوبى البحر الأحمر وعلى طول الساحل الإفريقى ، ويأتى بطرف عن السكان وأحوالهم ونظمهم [(٣٠)] ، ويشير إلى أومانا Omana ، كما يشير إلى مدينة تدعى Acila تقع بالقرب من رأس مسندم ، كانت السفن تبحر منها إلى بلاد الهند [(٣١)] .

ويروى أن مالك بن فهم الأزدى الذى قاد الأزد فى رحلتهم من اليمن إلى عمان ، قتله ولده سليمة خطأ ، ولم يجد سليمة هذا إلا أن يفارق وطنه ، فعبر البحر إلى أرض كِرمان ، حيث استقر بها وتزوج ، وعاش ولده من بعده [(٣٢)] .

فى مطالع القرن السابع الميلادى ، أشرق الاسلام بنوره ، فهيأ دافعاً كبيراً على تدفق الهجرات وقوافل التجار ، وشارك العمانيون فى حركة الفتوح عن طريق البحر ، وقادهم عثمان بن أبى العاص

---

(30) Coupland, R: East Africa and its invaders (Oxford 1961) pp. 16-17.

(٣١) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٣٢) العوتبى : انساب العرب (مسقط ، وزارة التراث١٩٨٤) جـ٢ ، ص ٢١١، ٢١٨، الأزكوى : كشف الغمة : تحقيق عبدالمجيد القيسى . (مسقط وزارة التراث ١٩٨٦) ص ٢٦ – ٢٨ .

الثقفى ، فاحتل بهم جزيرة ابن كاوان المواجهة لبلادهم [٣٣] ، وأغار على سواحل الهند عند تانة [٣٤] ، كما وجه أخاه المغيره إلى خور الدَّيبل ، عند مصب نهر السند فى سنة ٦٣٦/١٥ [٣٥] . وكان لما قام به القراصنة الهنود من غارات ببوارجهم على السواحل الإسلامية ، دافعاً للحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق، لأن يأمر قائده بعمان بأن يرد الغارة عليهم [٣٦] .

لم يلبث أن اتسع نشاط العمانيين البحرى ، بعد أن أقاموا إمامتهم الاباضية ، فاهتم الأئمة بانشاء الأساطيل ، واجتمع لدى المهنا بن جيفر اليحمدى أسطول من ثلاثمائة مركب مهيأة لحرب العدو [٣٧] ، كما إن خليفته الصلت بن مالك الخروصى (٨٥١/٢٣٧ – ٨٨٥/٢٧٢) أرسل أسطوله إلى جزيرة سُقُطْرَى ،

---

(٣٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، (القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٧) جـ٢ ، ص ٤٧٦ ، العوتبى : المصدر نفسة جـ٢ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧

(٣٤) Thana قرب بومباى ، ومازال قائمةً حتى اليوم . حورانى : المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ، حاشية ١ .

(٣٥) البلاذرى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٥٣٠ .

(٣٦) المصدر نفسه : جـ ٣ ، ص ٥٣٤ .

(٣٧) السالمى : تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان ، (مسقط ، وزارة التراث ، ١٩٨١) جـ١ ، ص ١٥٠.

فانتزعها من النصارى الذين كانوا قد استولوا عليها [٣٨] .

إلى جانب هذا النفوذ السياسى ، فإن مدن عمان - وخاصةً صُحار - ازدهرت ، وصارت لها تجارتها الواسعة .

يقول المقدسى (ت حوالى ٣٩٠/١٠٠٠)[٣٩] :

« صحار هى قصبة عمان ، ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه ، عامر آهل حسن طيب نزه ، ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات ، أسرى من زبيد وصنعاء ، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة ، والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة فى آخر الأسواق ، ولهم آبار عذبية وقناة حلوة ، وهم فى سعة من كل شىء ، دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن » .

---

(٣٨) قصص وأخبار جرت فى عمان لمؤلف مجهول . تحقيق عبدالمنعم عامر (مسقط ، وزارة التراث) ص ٦٧ ، وأنظر السالمى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(٣٩) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . (ليدن ، بريل ١٩٠٩) ص ٩٢ . ويقول الإصطخرى كلاماً مشابهاً ، المصدر نفسه ص ٢٧ ، وكذا ابن حوقل. المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

- 3 -

دخلت عمان فى إطار الدولة الاسلامية بدخولها فى الإسلام، فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، لكنها حظيت بقدر من الإستقلال ، تحت حكم بنى الجُلَنْدَى ، لم يلبث أن توطد مع نجوم الفتنة التى بدأت بمصرع عثمان رضى الله عنه . وعندما ولى الحجاج بن يوسف العراق ـ وكانت عمان داخلةً فى ولايته ـ أرسل جيشاً بقيادة مُجاعة بن شَعْوة الـمُزَنى ، فاشتبك مع الجيش العمانى ، بقيادة سعيد وسليمان ابنى الجلندى ، اللذين حاقت بهما الهزيمة ، والتحقا مع أتباعهما بأرض الزنّج [٤٠] ، واستقر العمانيون بجزيرة مافيا Mafia ، المواجهة لمصب نهر الروفيجى Rufiji [٤١] أو جزيرة بتاء Pate فى الشمال [٤٢].

كانت هذه الهجرة مقدمةً لهجرات أخرى ، تتابعت على طول الساحل الإفريقى [٤٣] ، فقد هاجر بعض الزيدية من بلاد اليمن ،

---

(٤٠) الأزكوى : المصدر نفسه ، ص ٣٨ ، تاريخ أهل عمان لمؤلف مجهول ، تحقيق سعيد عاشور (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨٦) ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٤١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، (القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٥) ص ٥٧ .

(42) Ingrams : op cit pp. 73-74.

(٤٣) أوزنجبار بمعناها الواسع ، أما زنجبار بمعناها الضيق فيقصد به جزيرة زنجبار أو زنزبار Zanzibar

بعد فشل الثورة التى أشعلها يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ضد بنى أمية فى سنة ٧٤٢/١٢٥ ، واستقر هؤلاء الزيدية بساحل البنادر (وهو ساحل الصومال) وخاصةً مدينة شونجوايا Shungwaya (٤٤) .

فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، أتى عرب من الإحساء ينتمون إلى قبيلة الحرث ، وأسسوا مدينة مقْدَشو Mogadishu وبراوة Barawa ، وطردوا الزيدية إلى الداخل ، حيث اندمج هؤلاء بالزنج ، وصاروا يدعون Emozaidiji أو Emozeid (٤٥) .

فى القرن نفسه ، وربما فى بدايات القرن التالى (٤٦) ، أتت

---

(44) Coupland : op cit p. 22

وأنظر أيضاً جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية . ترجمة يوسف كمال (القاهرة ١٩٢٧) ص ٧٢ .

(45) Chittick : op cit, pp. 103 - 104, Ingrams : op cit, pp. 76 - 77.

(٤٦) يذهب صاحب السلوة إلى أن هذه الهجرة وقعت فى منتصف القرن الثالث الهجرى

راجع السلوة فى أخبار كلوة لمؤلف مجهول ، تحقيق محمد على الصليبى (مسقط وزارة التراث ١٩٨٥) ص ٣٠ . لكن الاتجاه الغالب بين المؤرخين المحدثين هو تحديدها بحوالى سنة ٩٧٥م . أنظر :

Ingrams. op. cit : p. 77

هجرة دعيت بالهجرة الشيرازية ، أسفرت عن تأسيس سلطنة كِلْوة Kilwa التى تدعى أحياناً بسلطنة الزنج ، وامتد نفوذ هذه السلطنة من پمبا Pemba فى الشمال إلى سُفالة Sofala فى الجنوب ، لكنها لم تكن دولة واحدة ، إنما كانت مدناً مستقلةً ، سقطت أخراها فى أيدى البرتغاليين فى سنة ١٥١٢م (٤٧) .

يبالغ الكتاب الأوربيون فى حديثهم عن الهجرة الشيرازية ، فى حين لم يصلنا من آثارها سوى مسجد فى جزيرة زنّجبار وقصر فى جزيرة كلوة (٤٨) .

على أن الطابع العربى لمنطقة الساحل لم يلبث أن عاود الظهور مع هجرة عمانية جديدة ، قادها بنو نبهان ، وهم قوم من الأزد ، حكم بعضهم فى عمان نفسها ، وفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥م تزوج أحد ملوك بنى نبهان بابنة حاكم جزيرة بتاء Pate الشيرازى ، ولم يلبث أن آل إليه حكمها ، ثم امتدت سيطرته وأبنائه من بعده إلى مدن أخرى غيرها (٤٩) .

---

(٤٧) قاسم : المرجع نفسه ، ص ٦٧ .

(٤٨) ترمنجهام : سپنسر . الإسلام فى شرق افريقيا ، ترجمة محمد عاطف النواوى (القاهرة ، ١٩٧٣) ص ٣٩ .

(٤٩) قاسم : المرجع نفسه ، ص ٦١ .

إذا كان البرتغاليون قد حجبوا الطابع العربى ـ العمانى لساحل زنجبار مدةً تقترب من قرن ونصف القرن ، إلا أن العمانيين عادوا مرةً أخرى إلى هذا الساحل مع الأسرة اليَعْرُبية فى مطالع القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى .

ورغماً عن طول عهد العرب بالساحل الإفريقى ، فإن التجارة كانت هى الطابع العام للوجود العربى هناك ، ففى مقابل المنسوجات والأشغال المعدنية، والخرز ، كان العرب يستقدمون الذهب والعاج والرقيق وغير ذلك من السلع الثمينة ، فيصدرونها إلى عمان وغيرها من الأقطار (٥٠) . ويعزو المسعودى (٥١) ارتفاع سعر العاج فى بلاد المسلمين إلى إقبال أهل الصين على اقتنائه ، وقد عثر فى جزيرة مافيا على نقود تعود إلى عهد الإمبراطور شان ـ تسونج Shan-Tsung (١٠٦٨-١٠٨٦) والإمبراطور شاو - كنج Shauking (١١٣١-١١٦٣) (٥٢) .

---

(50) Coupland : op cit. p. 30 .

(٥١) المصدر نفسه ،جـ ١ ص ٧ . ويحدثنا صاحب عجائب الهند عن نملة كبيرة (يقصد سلحفاة) أهدها امير عمان أحمد بن هلال فى سنة ٣٠٦ هـ إلى الخليفة العباسى المقتدر ، وكان قد أتى بها من بلاد الزغ، ص ٤٩ .

(52) Coupland : op cit, p. 3

ورد فى السجلات الصينية أنه كان يرد الى الصين قرن وحيد القرن من مناطق مختلفة فى آسيا، لكن أجوده ما يأتى من جزيرة زنجبار ، نقولا زيادة : الجزيرة العربية فى أخبار المؤلفين الصينيين ؛ بحث فى مصادر تاريخ الجزيرة العربية (جامعة الرياض ١٩٧٩) جـ٢، ص ٣٠ .

لم يكن التجار العرب جميعهم من المستوطنين ، فقد كان بعضهم يأتى من عمان ، فيبيعون للزنج ويشترون منهم ، وكانت لهم مهابة عظيمة عندهم(٥٣) .

أسفر هذا النشاط الاقتصادى عن ازدهار واضح ، دهش له البرتغاليون عند مقدمهم ، ففى موزمبيق Mozambique شاهد دا جاما Vasco da Gama سلطانها يرتدى ـ وصحبه ـ ثياباً فاخرةً من المخمل والحرير الموشى بالذهب ، ويتمنطقون السيوف والخناجر الفضية ، وراعه اتساع المدينة ، وبيوتها متعددة الطوابق، وفى ملندة Malindi استقبل مبعوثه فى قصر الحاكم ، وقد امتدت به البسط والسجاجيد ، وخلع عليه الحاكم وأهداه خاتماً به حجر كريم أزرق اللون (٥٤) .

تؤكد السجلات الصينية من عهد أسرة مينج Ming هذه الحقيقة ، فتتحدث عن مدينة مقدشو ومنازلها المبتناة بالحجارة ، وفى سنة ١٤٢٧م وصلت إلى الصين سفارة من مقدشو ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قدم أسطول صينى لزيارة المدينة (٥٥) .

---

(٥٣) الإدريسى : المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

(54) Coupland : op cit, p 38

(55) Ibid p 37 Chittick : op cit, p. 112

كان لهذا الوجود العربى ـ العمانى أثره فى انتشار الإسلام فى هذه الأصـقـاع البـعـيـدة ، وينوه ابن بطوطة [٥٦] (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨-١٣٦٩م) بسكان مقدشو المسلمين ، كما ينوه بقاضيها المصرى الأصل .

ويبالغ ماركو پولو [٥٧] ، فيذهب إلى أن سكان مدغشقر جميعهم مسلمون ، ولهم أربعة شيوخ ، يقتسمون الحكم فيها بينهم . ويردد صاحب عجائب الهند [٥٨] قصةً طريفةً ، مؤداها أن

(٥٦) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا : ياقوت : المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٣٤٣ .

(٥٧) المرجع نفسه ، ص ٣٢٩ .

(٥٨) يقول برزگ إنه فى سنة ٩٢٢/٣١٠ خرج بعض التجار فى سفينة من عمان ، فالقت بهم الريح إلى أرض الزنج بالقرب من سفالة ، وبها قوم يأكلون لحم البشر ، وتوقع التجار الخطر ، ولكن حدث عكس ماكانوا يتوقعونه ، فقد رحب بهم الملك ، ومكنهم من بيع مايحملونه بشروط مربحة، ولم يأخذ منهم مكوساً ، لكنهم غدروا به ، عندما اعتلى سفينتهم وبعض حاشيته لتوديعهم ، فأوثقوهم بالحبال ، وعادوا بهم إلى عمان وباعوهم رقيقاً ، وتشاء الظروف أن يعودوا إلى الموضع نفسه بعد خمس سنوات ، فيقبض عليهم الأهلون ويأتون بهم إلى ملكهم الذى يعاملهم معاملة كريمة ، ويعرفهم بنفسه ، على أنه الملك الذى غدروا به واسترقوه ، وروى لهم أنه بعد أن باعوه لسيد مسلم هداه الله إلى الإسلام ، وبعد حين غافل سيده ، وهرب ولحق بقافلة متجهة إلى الحجاز ، فأدى فريضة الحج ، ومن هناك ارتحل إلى مصر ، وصعد فى النيل ، وصادف مشاقاً عدة حتى انتهى إلى بلاده .. وقد عفا الملك عن التجار لأنهم كانوا السبب فى إسلامه ، ص ٣٨ ـ ٤٥ .

الإسلام وصل إلى سُفالة Sofala فى أقصى الجنوب ، وذلك فى فترة باكرة ، تعود إلى أوائل القرن الرابع الهجرى .

يتضح لنا مما سبق أن الساحل الأفريقى لم يكن مجهولاً للعمانيين وغيرهم من المسلمين ، وإن كان مجهولاً للبرتغاليين وغيرهم من الأوربيين ، على أنه مما تجب ملاحظته أن العرب كانوا يرتبطون فى معظم الأحوال بالساحل ، ولايتعمقون كثيراً بالداخل، والسبب فى ذلك أنهم قد قدموا من بيئة بحرية ـ تجارية وتوزعتهم مجموعة من المدن التجارية .

أعان على ذلك أن التوجيه الجغرافى فى شرقى القارة الافريقية إنما هو من الداخل إلى الساحل وليس العكس ، فأطوال الساحل قليلة وتعرجاته صغيرة ، وجزره وأشباه جزره محدودة ، ولا يزيد عرضه فى أحسن الحالات عن مائة ميل ، تغطيها الغابات فى معظمها (٥٩) .

وجد العرب صعوبات فى اختراق الهضبة ، فمنسوب مياه الأمطار يقل كلما اتجهنا غرباً ، ويتصل موسم الجفاف مدى ستة شهور كل عام ، ثم إن الأنهار سريعة الجريان ، يعترضها لدى الساحل ركام رمال ، ويعترضها بالداخل مساقط مياه ، وهذا كله

(59) Ojary, Francis F: The geogaphy of East Africa (in Zamani) p. 26 & Coupland : op cit p, 5.

يعوق الملاحة [٦٠] .

وجد العرب صعوبات أخرى في التقدم على طول الساحل جنوباً ، لأن الرياح الموسمية تكف عن الهبوب جنوبي رأس كورينتس Corrientes الذي عرفوه بجبل الندامة ، وتشتد التيارات المائية والزوابع ويبرد الجو [٦١] ، لذلك كانت سفالة هي آخر المستوطنات العربية جنوباً .

يقول المسعودي [٦٢] .

« سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج ، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين ، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج» .

كذلك كان العرب يواجهون في أعماق القارة قبائل متوحشة من «الزنج الذين يأكلون الناس» [٦٣] وكانوا يقومون ضدهم

---

(60) Ojary : op cit p 33 & Coupland : op cit., p. 3.

ومع أن نهر الزمبيزي Zambizi هو أنسب أنهار إفريقية الشرقية من ناحية صلاحيته للملاحة إلا أن مساقط كبراباس Kebrabas عاكست لفنجستون Livingstone Ibid, p. 6 . الرحالة الشهير في القرن الماضي .

(61) Ibid, p. 25.

(٦٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦ .

(٦٣) عجائب الهند ص ١٣٤ ، وانظر أيضاً :

Coupland : op cit p. 29

بحملات وقائية بين حين وآخر ، وفى عهد دخول ابن بطوطة كلوة فى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م كان سلطانها «كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم ، فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى» [٦٤] .

وعليه فقد نشأت المستوطنات العربية الأولى فى الجزر ، ليسهل الدفاع عنها [٦٥] ، بل كانت أول عاصمة لجزيرة زنجبار جزيرة صغيرة تجاورها تدعى تمباتو Tumbatu ، وفى بعض الأحيان كان العرب يغامرون ، فينشئون مستوطنات على الساحل المجاور [٦٦] .

مع ذلك فإن العرب كثيراً ما كانوا يتجاوزن عن الصعوبات التى تحول دون تقدمهم فى عمق الداخل ، وينشئون مستوطنات ، وقف البرتغاليون على واحدة منها ، تبعد مسافة مائة ميل فى أعماق نهر الزمبيزى ، ويبدو أنهم تتبعوا النهر حتى أوقفتهم الشلالات [٦٧] .

---

(٦٤) رحلته ، جـ١ ، ص ٢٨٤ .

(65) Chittick : op cit, p. 105.

(66) Coupland ; op cit, p. 25.

(67) Ibid p. 30.

وصل العمانيون أيضاً إلى جزيرة قنبلو (أو قَنْبَلُة) في وقت مبكر ، ويستفاد من وصف الجغرافيين العرب أنها مدغشقر الحالية، وليست احدى جزر القُمْر (٦٨) ، بل إن تعبير جزيرة القمر، كان ينصرف عند ابن ماجد (ت أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى) (٦٩) إلى مدغشقر نفسها ، وقد سبقه ابن سعيد (ت ١٢٨٦/٦٨٥) (٧٠) الذى يتحدث عن ضخامتها ، ويقول إن طولها أربعة أشهر ، وعرض الواسع منها نيف وعشرون يوما .

كان من عادة العمانيين أن يرتحلوا من صحار مباشرةً إلى قنبلو ، وينتقلوا منها إلى سفالة المقابلة لها (٧١)، وأحيانا كانت الريح تدفع السفن بعيداً عن قنبلو ، وتتجه بها رأساً إلى الساحل الإفريقى (٧٢) .

---

(٦٨) كما يذهب جيان : المرجع نفسه ، ص ٨١ .

(٦٩) الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، نشر فيران (باريس ١٩٢٢) جـ٣ ص ٦٨ وجه وظهر . ويقول الإدريسى إن «ملكها يسكن منها مدينة ملاى» المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٧١ وملاى صيغة من ملاجاش إسم لمدغشقر .
أنظر أيضًا الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، نشر ميرين (لايبتسيج ١٩٢٣) ص ١٦١ .

(٧٠) كتاب الجغرافيا : تحقيق إسماعيل العربى (بيروت ، المكتب التجارى ١٩٧٠) ص ٨٤.

(٧١) المسعودى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٧٢) عجائب الهند ، ص ٣٨ .

- 4 -

عرف العرب من أهل عمان الرحلة أيضاً إلى الصين والشرق البعيد ، في فترة ماقبل الإسلام ، فالأخبار متواترة عن الصلات بين أقطار الخليج من ناحية وهذه الأقطار من ناحية أخرى [٧٣] ، على إنه يتضح لنا أن هذه الصلات كانت من الخليج إليها وليس العكس ، ومايذهب إليه المسعودى[٧٤] من أن سفن الصين والهند كانت ترد إلى الحيرة قبل الإسلام غير صحيح ، وعبارة سفن صينية التى يستخدمها جغرافيو العرب ومؤرخوهم ، كانت تعنى أحياناً سفناً إسلاميةً تزور الصين [٧٥] ولم تعرف المياه العربية سفناً غير عربية (وغير فارسية) سوى سفن القراصنة الهنود التى دعاها العرب بالبوارج .

يعد ابن خُـرْداذْبَة [٧٦] (الذى ألف كتابه حوالى سنة ٢٣٦/ ٨٥٠) وسليمان التاجر [٧٧] (الذى ألف كتابه فى سنة

---

(٧٣) راجع : حورانى : المرجع نفسه ، ص ٤٢ ، ومابعدها .

(٧٤) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٠٢ .

(٧٥) حورانى : المرجع نفسه ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ وفى عجائب الهندس «شهريار الربان وكان أحد ربابنة الصين» ، ص ٦٤ .

(٧٦) المسالك والممالك (ليدن ، بريل ١٨٨٩) ص ٦٠ ـ ٦٩ وانظر أيضاً ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان (ليدن ، بريل ١٨٨٥) ص ١١ ـ ١٣ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٧ ـ ٩ .

٨٥١/٢٣٧) أول من وصفا الرحلة البحرية إلى المشرق . وكانت هذه الرحلة تبدأ من البصرة فى رأس الخليج ، فتسير السفن الصغيرة إلى سيراف ، حيث تنتقل شحناتها إلى سفن كبيرة ، ثم تتجه إلى صحار فمسقط فى عمان ، وتتزود بالماء إلى كُولَم مَلى Quilon جنوبى ساحل المليبار بالهند إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا) وتدخل بحر هركند (خليج البنغال) وتتوقف بجزر لنجبالوس (نيكوبار Nicobar) وتتزود بالماء ويأتى الأهالى فى زوارق، فيتبايعون بالإشارة ، ثم تنطلق السفن إلى كَلَه (٧٨) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو ، وتعبر بعد ذلك مضيق شلاهط (مالقة) إلى بلاد الصنْف (مملكة تشابا Champa شرقى الصين الهندية) إلى جزيرة قربها تدعى صَنْدَر فُولات ، ثم تدلف إلى بحر صنخى (٧٩) (وهو بحر الصين) إلى لوقين (هانوى) وتنتهى بميناء خانفو (كانتون) ، وربما تتابع الرحلة إلى خانجو أو الزيتون (٨٠)

---

(٧٨) أوكلاه والأشهر كله بار وهى كرا Kra ، ويذهب هول إلى أن العرب يقصدون بها كل شبه جزيرة الملايو

Hall, D.G.E : A history of South East Asia, London Macmillan 1986, p. 65.

(٧٩) ويدعوه المسعودى بصنجي : المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

(٨٠) ويذهب نقولا زيادة الى أنها دعيت بذلك نسبةً الى أشجار الزيتون التى تزخر بها ، المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

(تشـوان ـ تشـو – فـو Chuan - Chow - Fu) وقانصو[٨١] (هانجتشاو Hangchow) .

هذا هو خط الملاحـة الرئيـسى من بحـر فـارس إلى أقـصى المشرق، على أنه كـان يخرج منه خط فرعى ، يبـدأ من كلة إلى جزيرة الزابج (سومطرة) وجاوة[٨٢] ، وبطبيعة الحال عرف العرب الرحلة المباشرة إلى الدَّيْبُل والمنصورة فى بلاد السند[٨٣] .

كان العمـانيون فى أوبهم حريصين على أن يأتوا من المشرق بطرائف ، كان أحمد بن هلال ـ صاحب عمان ـ يهدى منها إلى الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥هـ/٩٠٢م ـ ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ففى سنة ٣٠٥هـ حمل إليه ألوان الطيب ورماحاً وطيراً صينياً أسود يتكلم أفصح من الببغاء بالهندية والفارسية وظباءً سوداً[٨٤] ،

---

(٨١) إبن خرداذبة : المصدر نفسه ، ص ٧٠ وانظر أيضاً حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ، زانغ هو : المعاملات بين الصين والعرب فى العصر الوسيط ، بحث فى حصاده ندوة الدراسات العمانية ، (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨٠) جـ٦ ، ص ٣٥ ، ويدعوها ابن بطوطة بالخنساء ، المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٧٢٨ .

(٨٢) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .

(٨٣) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٨٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى (تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ، القاهرة ، دار المعارف) ص ٦٤ .

كما حمل إليه فى مرة أخرى قروداً عجيبةً شبيهةً بالإنسان (٨٥) .

فى الوقت نفسه شهدت الصين إقبالاً شديداً على اللبان ، بحيث صار احتكاراً للحكومة فى عهد أسرة سونغ Sung (٩٦٠/١٢٣٩م) (٨٦) وفى السجلات الخاصة بهذه الأسرة يتردد ذكر نوفا (ظفار) ووبا (مرباط) ووشيون «صحار» ووغ ـ مان (عمان) (٨٧) .

أقام التجار الأجانب فى أحياء خاصة بمدينتى خانفو والزيتون، وكان معظم هؤلاء التجار من العرب ، ولهم رئيس منهم ، يتم تعيينه من قبل الحكومة ، فإذا جاء العيد ، فإنه يصلى بهم ، ويدعو للخليفة فى خطبته (٨٨) . على أن الحكومة لم تكن تترك لهم الحرية كاملةً فى التصرف ببضائعهم ، فكانت تقبضها منهم عند بدء دخولها الميناء ، إلى أن يكتمل دخولها ، فتسمح لهم بالتصرف فيها ، بعد أن تحصل الرسوم الخاصة بها (٨٩) ، والهدف

---

(٨٥) المسعودى : المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٩٧ .

(٨٦) تشانغ زون يان : الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ ، ط٢ (مسقط ، وزارة التراث) ص ١٢ ـ ١٣ .

(٨٧) المرجع نفسه ، ص ١٤ ، زاغ هو : المرجع نفسه ، ص ١٤ ، ٣٢ .

(٨٨) أخبار الصين والهند ، ص ٧ .

(٨٩) المصدر نفسه : ص ١٦ .

من ذلك تخفيض الأسعار بإغراق السوق بالسلع [٩٠] .

ومع تنائى المسافات ونزارة الأخبار ، إلا إنه وصلتنا أسماء بعض العمانيين الذين ارتحلوا إلى الصين فى وقت مبكر ، منه أبو عبيدة عبد الله بن القاسم ، وهو من طبقة تابعى التابعين ، عاش فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة ، وارتحل إلى الصين ، وأقام سنوات حيث اشتغل بتجارة العود ، ثم عاد إلى وطنه عمان[٩١] ، وفى أعقابه أتى عمانى آخر كان يعيش فى البصرة هو النضر بن ميمون ، وكتب تفاصيل عن سفرته هذه [٩٢] . ويعد هذان العمانيان أقدم أسماء تصلنا بين المسلمين الذين ارتحلوا إلى بلاد الصين، وهما يسبقان التاجر سليمان وابن وهب القرشى ، وكان هذا الأخير قد ذهب إلى الصين فى سنة ٨٧٠/٢٥٧ ، عندما سقطت البصرة فى أيدى الزنج [٩٣] .

على أن الوجود العربى لم يخل أحياناً من مضايقات ، أعان عليها اضطراب الأحوال فى أواخر عهد أسرة تانج Tang

---

(٩٠) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢١٧ .
(٩١) الشماخى : كتاب السير . تحقيق أحمد بن سعود السيابى (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨١) جـ١ ، ص ٨٧ .
(٩٢) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه . جـ١ ، ص ١٣٨ .
(٩٣) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٢ .

(٦١٩-٩٦٠م) حين سيطر الخصيان على الأباطرة ، وصار تعيينهم بأيديهم كما قتلوا بعضهم [٩٤] ، وتتحدث السجلات الصينية عن أن التجار الأجانب من العرب والفرس نهبوا مدينة كانتون فى سنة ٧٥٨م وأحرقوها وغادروها عن طريق البحر ، مما أسفر عن تحريمها على الأجانب زمناً طويلاً ، بحيث صار خليج تونكين Tong King نهاية المطاف للسفن الأجنبية ، بيد أن هذه السجلات تقرر أن كانتون فتحت للأجانب من جديد فى سنة ٧٩٢ م [٩٥] .

فى سنة ٨٧٨/٢٧٤ قاد هوانج - تشاو Huang Chau انتفاضةً فلاحيةً كبيرة ، ونادى بنفسه امبراطوراً ، ومع أنه دخل العاصمة Chang'an [٩٦] إلا أن انتفاضته انتهت بالفشل فى سنة ٨٨٤م وانتحر [٩٧] .

ينفرد المسعودى [٩٨] بين العرب بتفصيل هذه الانتفاضة ،

---

(94) Bai Shouyi : An outline history of China (Foreign Language Press, Beijing 1982) p. 230.

(٩٥) حورانى : المرجع نفسه ، ص ١٩٣ - ٢٠٠ .

(٩٦) ربما هى خمدان أو حمدان عند المسعودى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٢ وانظر أيضا عجائب الهند ، ص ٦٩ .

(97) Bai Shouyi : op cit, pp. 233 - 234.

(٩٨) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٣٧ - ١٣٩ .

ويدعو صاحبها يانشو ، ويقرر أنه عندما اقتحم خانفو «قتل من أهلها خلقاً لايحصون كثرةً ، وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتى ألف» .

ترتب على ذلك أن صارت السفن العربية تكتفى فى رحلتها إلى المشرق بالتوقف فى كله بار على ساحل الملايو ، وتلتقى بالسفن الآتية من بلاد الصين ويتم تبادل السلع [٩٩] ، على أن الأمور لم تلبث أن استقامت مرة أخرى ، ويتحدث بزرگ بن شهريار عن تاجر يهودى من أهل عمان ، ذهب إلى الصين فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وعاد بثروة طائلة .

عندما نراجع السجلات الصينية يتردد ذكر تاجر من صحار ، يدعى الشيخ عبد الله ، دعاه الصينيون كين ياتيو ، عاش فى مدينة كانتون سنوات طويلة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان مقرباً من الامبراطور شين زونغ Shen Zong (١٠٦٧ - ١٠٨٥)، الذى عينه رئيسا لحى الأجانب بالمدينة ، واستطاع هذا التاجر أن يجمع ثروةً ، جعلته يقترح على الدولة المساهمة فى ترميم سور كانتون ، ولم يلبث الإمبراطور أن أنعم عليه برتبة

---

(٩٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٠ .

عسكرية كبيرة ، ولدى عوده إلى وطنه عمان فى سنة ١٠٧٢ م أهداه جواداً أبيض وسرجاً(١٠٠) .

فى عهد أسرة مينج Ming (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) ازدادت الصلات توثقاً بين عمان والصين ، وبدأ الصينيون يرتحلون بأنفسهم إلى بلاد العرب ، ويتردد فى سجلات هذه الأسرة ، أخبار عن رحالة صينى مسلم أوفده الإمبراطور شينج ـ زو Cheng Zu (١٤٠٢ ـ ١٤٢٤) والامبراطور شوان زونغ Xuan Zong (١٤٢٥ ـ ١٤٣٥) فى سفارتين إلى ظفار رداً على سفارتين أتيتا من هناك .

كان هذا الرحالة ويدعى تشين هى Zheng He قد قام بعدة رحلات إلى الأقطار المجاورة للصين ، وتعد رحلته الثانية إلى ظفار هى أطول رحلاته ، لأنه زار خلالها عدن وسواحل الجزيرة العربية وساحل الزنج ، وعاد فى سنة ١٤٣٣م ، ومعه وفد من ظفار ، استقبله الامبراطور ، فأقام بالعاصمة الصينية ثلاث سنوات (١٠١) .

---

(١٠٠) زانغ هو : المرجع نفسه ، ص ٣٦ ـ ٣٧ ، تشانغ زون يان : المرجع نفسه، ص ١٥ـ١٦ .

(101) Bai Shouyi : op cit, p. 334.

وانظر ايضاً زانغ هو : المرجع نفسه ، ص ٤٩ ، ٥٢ ، تشانغ زون يان : المرجع نفسه ، ص ١٨ ـ ٢٠ .

يتضح لنا من حديثنا عن تشين هى أن الإسلام استطاع أن يشق طريقه فى بلاد الصين ، بعد أن استقر عدد من التجار هناك وتزوجوا بصينيات ، ونشأ جيل من الصينيين ، عرف باسم هوى ـ زو [(١٠٢)] ، ويوجد بزيتون جامع تؤكد نقوشه أنه بنى فى سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ [(١٠٣)] .

عندما زار ابن بطوطة الصين فى سنة ١٣٤٤/٧٤٥ ، وأقام فى مدينة زيتون رحب به مسلموها ، وبينهم القاضى وشيخ الاسلام [(١٠٤)] ، كما زار مدينة الخنساء ، ووجدها مقسمةً إلى ست مدن ، إحداها تختص بالمسلمين[(١٠٥)] .

فى الأقطار المجاورة للصين ، انتشر الإسلام بفضل التجار العرب ، فرغماً عن أن جزر الهند الشرقية ، كانت بعيدة عن الخط الملاحى الرئيسى بين الصين وبلاد العرب ، إلا أن التجار المسلمين وصلوا إليها ، ويحكى بزرگ[(١٠٦)] عن شيخ عمانى عاش فى بلاد الزابج (سومطرة) واستطاع أن يجعل ملكها يعامل

---

(١٠٢) زانغ هو : المرجع نفسه ، ص ٤٦ ـ ٤٩ .

(١٠٣) المرجع نفسه : ص ٣٨.

(١٠٤) رحلته ، حـ ٢ ، ص ٧٢٢ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٧٢٨ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

المسلمين معاملةً خاصةً ، وأن يجلسوا فى مجلسه كما يشتهون، وفى زمن ابن بطوطة [١٠٧] صار هذا الملك من المسلمين .

كذلك فقد عثر بجزيرة جاوة على كتابة عربية على قبر امرأة فى مدينة جريسيك Gresik وتعود هذه الكتابة إلى سنة ١٠٨٢ أو ١٠٠٢[١٠٨] أما جزائر بحر الهند وخاصة الجزر التى عرفها العرب بالدّيبجات[١٠٩] ، فيذهب ابن سعيد [١١٠] إلى أن كثرة سكانها مسلمون من أبناء العرب ، والمعروف أن ابن بطوطة أقام بذيبة المهل (المالدايف) فترةً ، وولى القضاء ، وتزوج بأربع من نسائها [١١١] .

على أن أهم الأقطار التى دخلها الإسلام فى وقت مبكر ـ بحكم القرب المكانى ـ هى بلاد الهند ، وبدأ المسلمون يتطرقون إليها من الركن الشمالى الغربى (السند) فى عصر الفتوح ، الا أن الإسلام دخلها أيضاً من الركن الجنوبى الغربى المعروف بساحل ملبار[١١٢] ، وذلك بفضل التجار المسلمين خاصةً العمانيين ،

---

(١٠٧) رحلته ، جـ٢ ، ص ٧٠٦ .

(108) Hall : op cit. p. 221.

(109) Laccadives, Maldives

(١١٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(١١١) رحلته ، جـ٢ ، ص ٦٥٥ ـ ٦٦٤ .

(١١٢) أو المليبار كما فى ابن بطوطة : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٣٢ ، وابن ماجد : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص ٧١ ظهر ، وتعرف أيضاً ببلاد الفلفل .

وكانت لهذا الساحل أهميته ، باعتباره مصدراً لخشب الساج الذى تبنى به السفن [(١١٣)] .

تذهب الروايات المحلية ، إلى أن المليبار عرفت الإسلام فى وقت مبكر يعود إلى حوالى ٢٠٠هـ ، فقد أتى إلى هذا الساحل جماعة من المسلمين ، أقنعوا الملك بالدخول فى دينهم ، فصحبهم إلى الحجاز ، وفى طريق عودته إلى بلاده مات بظفار ، وقبره هناك مشهور يتبرك به .

الطريف أن هذا الملك أوصى أتباعه قبيل وفاته ، بأن يقدموا كل عون من أجل نشر الإسلام وبناء المساجد [(١١٤)] .

عندما زار ابن بطوطة ساحل المليبار فى سنة ١٣٤٢/٧٤٢ كان عدد كبير من سكانه مسلمين ، ويذكر إنه فى مدينة فندرينا ثلاثة مساجد ، كما إن قاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان [(١١٥)] .

---

(١١٣) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢١١ .

(١١٤) زين الدين المعبرى المليبارى : تحفة المجاهدين فى أحوال البرتغاليين ، تحقيق محمد سعيد الطريحى (بيروت ، مؤسسة الوفاء ١٩٨٥) ص ٢٢٣ - ٢٣١ .

(١١٥) الرحلة ، جـ٢ ، ص ٦٤٤ .

- 5 -

مما سبق يتضح أن للعرب ـ والعمانيون منهم ـ فضل الريادة فى مجال الكشف الجغرافى ، وللعرب ـ والعمانيون منهم ـ فضل آخر فى مجال آخر.

بداءةً توصل العرب من منطلق العلم البحت والتجربة إلى مجموعة من المعارف الجغرافية ، كانت محجوبةً عن الأوربيين ، وكان للعرب الفضل فى كشف هذه الحجب ، ولدى انتقال هذه المعارف إلى الأوربيين ، صارت خير عون لهم فى رحلاتهم الكشفية . فالعرب أخذوا بكروية الأرض ودورانها حول محورها ، فى حين اطمأن الأوربيون فى العصور الوسطى إلى ماورد فى الكتاب المقدس بشأن تسطيحها .

إذا شئنا التخصيص ، وركزنا على ما يتصل من الجغرافيا بالواقع العملى ، نجد أن المسالك والممالك ابتكار عربى خالص ، ليس لليونانيين فضل فيه[١١٦] ، واعتمد الجغرافيون العرب على المشاهدة الشخصية والتجربة دون السماع ، ويقرر المسعودى [١١٧] أن معلومات ربابنة عمان وسيراف عن بحر الهند ، لا تتفق مع

---

(١١٦) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، (مدريد ، المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ١٩٦٧) ص ٦ .

(١١٧) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

نظريات الفلاسفة ، ويقصد بالفلاسفة هنا اليونانيين ، وينوه ببعض هذه المعلومات ، مثل ظاهرة المد والجزر وأنواعها وأثرها على الملاحة[١١٨] ، ويتحدث عن الرياح الموسمية التى أفادوا منها فى رحلاتهم فيقول : [١١٩]

«ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها ، فى أوقات تكون منها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ، إبان هيجانه وأحوال ركوده وثورانه» .

تحدث ابن ماجد عن هذه الرياح وأثرها فيما أسماه غلق البحر وفتح البحر، وما يترتب عليها من مواسم معينة للإبحار فيقول: [١٢٠].

وينبغى معرفة الرياح
ومغلق البحر والمفتاح
فغلقه يمكث ربع عام
مدة تسعين من الأيام

---

(١١٨) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ وانظر أيضاً أنور عبدالعليم : المرجع نفسه، ص ١٥٠ـ ١٥٤ .
(١١٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ١١٢ .
(١٢٠) حاوية الاختصار فى أصول علم البحار ، نشر فيران (باريس ، جيتنر ١٩٢٢) جـ٤ ، ص ٩٠ وجه .

وإذا كان العرب من العمانيين وغيرهم قد طرقوا آفاقاً بعيدة قبل الاوربيين، فإننا بمراجعة ابن ماجد ، نجده يتحدث عن الاستدارة حول القارة الافريقية فى معرض حديثه عن الساحل الواقع إلى الجنوب من سفالة .

يقول ابن ماجد [١٢١] .

«فاذا بلغت ذلك المكان انحازت جزيرة القمر على يسارك ، وانقطع البحر عن يمينك ، ودار للمغارب والشمال ، وهناك أول الظلمات ، إذا نزلت الشمس بالسرطان ، فيرجع البر من هناك إلى بر الكانم .. فاذا تجاوزت الكانم جيت [١٢٢] إلى بر الوحات [١٢٣] ، وهو قريب (من) المغاربة » [١٢٤] .

يؤيد مايذكره ابن ماجد أن فرا مورو Fra Mauro [١٢٥] (ت ١٤٥٩) فى مصوره الجغرافى الذى يعود إلى سنة ١٤٥٧م يقول

(١٢١) الفوائد ، جـ٣ ، ص ٦٤ وجه .

(١٢٢) جئت .

(١٢٣) الواحات .

(١٢٤) الشطر الأخير من العبارة غير دقيق لأن الكانم (فى السودان الاوسط) والواحات لاتقعان فى أقصى غربى القارة الافريقية .

(١٢٥) راهب إيطالى برع فى الجغرافيا وصنع الخرائط وهو آخر الخرائطيين الكبار فى العصور الوسطى .

Dictionary of Scientific biography vol. IX, p. 189.

إن ملاحاً عربياً أبحر حوالى سنة ١٤٢٠م من المحيط الهندى ، فظهر فى المحيط الأطلسى (١٢٦) .

ننتقل الآن إلى نقطة أخرى هامة .

البرتغاليون فى ارتيادهم البحار الشرقية كان لابد لهم من أدوات تعينهم على هذا الارتياد .

من أين تتيسر لهم هذه الأدوات .

نطالع صفحات التاريخ ، فنشاهد العرب من أهل عمان يستعينون فى البحار الشرقية بسفن مثلثة الشرع ، بخلاف ماكانت عليه الحال فى بحر الروم، حيث كانت السفن مربعة الشرع .

كانت هذه الشرع المثلثة الممدوة عبر السفينة طولاً ، تعطى لها مزية المناورة فى المجارى الضيقة والأنهار ، كما إنها أقدر على الإقتراب من الريح . وفى أواخر العصور الوسطى ، أضاف الأوربيون الشراع المثلث إلى سفنهم ، ودعوه بالمظين Mezzana نسبةً إلى ميزان العربية ، أى إنه يوازن السفينة ، ولولا ذلك ما تمت رحلاتهم البعيدة فى أعماق المحيط (١٢٧) .

(١٢٦) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه جـ٢ ، ص ٥٦٢ . وأنظر أيضاً : خوان برنيط : هل هناك أصل عربى – إسبانى لفن الخرائط البحرية . ترجمة أحمد مختار العبادى فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، مدريد العدد الأول ١٩٥٣ ، ص ٨٣ .

(١٢٧) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢ .

عرف العمانيون أيضاً استخدام البوصلة أو بيت الإبرة ، ويشير إليها ابن ماجد فى غير موضع بفوائده [١٢٨] .

نشأت البوصلة نشأةً غامضةً ، ويذهب البعض إلى نسبتها إلى الصين ، وإنها انتقلت منهم إلى العرب والفرس [١٢٩] ، لكن الاتجاه الغالب الآن هو إن الصينين عرفوا الإبرة المغناطيسية ، لكن الذين أفادوا منها فى الملاحة هم العرب والفرس [١٣٠] ، وقد تم ذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ولم يلبث أن نقلها الأوربيون فى القرن الثالث عشر [١٣١] .

استعان العمانيون أيضاً بالأسْطُرلاب لقياس ارتفاع النجوم ، والأسطرلاب وإن كان ابتكاراً يونانياً ، الا أن العرب طوروه ، ووصلت إلينا نماذج منه يعود بعضها إلى القرن الرابع الهجرى /

---

(١٢٨) راجع مثلاً : الفوائد ، جـ١ ، ص ٢٢ وجه ، جـ٢ ، ص ٢٧ ظهر ، جـ٣ ، ص ٥٧ ظهر .

(١٢٩) يذكر باى شويى أنه فى عهد أسرة سونغ فى القرن الثالث عشر ، نشطت الملاحة بين الصين وبين بلاد العرب وفارس وأن المسلمين تعلموا الإفادة من البوصلة فى هذه المرحلة .Op cit p. 325

(130) Sarton. G: Introdnction to the history of science part. 1, p 764. part II, vol II. pp. 629-630

(١٣١) حورانى : المرجع نفسه ، ص ٢٨٤ ، وأنظر أيضاً عبدالعليم ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ ، ٢٠٧ .

العاشر الميلادى [١٣٢] ونقله الأوربيون عنهم .

لم يقف العمانيون عند هذا الحد ، فقد صنفوا مرشدات ملاحيةً وخرائط ملاحيةً ، لم تكن مألوفةً عند الأوربيين ، وقد عاين المقدسى بعضها .

يقول المقدسى [١٣٣] .

« وأما أنا فسرت فيه (يقصد بحر الهند والزنج) نحو ألفى فرسخ، ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان ، سوى ماتوهمت بنا المراكب إلى جزائره ولججه ، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشئوا من ربانيين وأشاتمة [١٣٤] ورياضيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره ، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك ، يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ، فعلقت من ذلك صدراً صالحاً ، بعدما ميزت وتدربت ، ثم قابلته بالصور التى ذكرت » .

---

(١٣٢) عبدالعليم : المرجع نفسه ، ص ١٦٩ ـ ١٧٢ ، ويقول ابن ماجد :

مع الربابين لها حساب

قد قستهم هناك بالأسطرلاب

ثلاث أزهار فى معرفة البحار : تحقيق تيودور تشوموفسكى ، نشر محمد منير مرسى (القاهرة ، عالم الكتب ١٩٦٩) ص ٣١ .

(١٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

(١٣٤) أى ربابنة .

دعيت هذه الدفاتر راهنامجات (أو راهمانجات) وواحدها راهنامج (أو راهمانج) وهى فارسية معربة معناها (كتاب الطريق)(١٣٥)

عرف العمانيون هذه المرشدات فى فترة باكرة ، ويشير ابن ماجد إلى واحدة منها ، يعود تاريخها إلى سنة ٥٨٠ / ١١٨٤(١٣٦) أى قبل أقدم المرشدات الملاحية الاوربية التى دعيت بالپورتولانية Portolani (وواحدها Portolano) بقرن ويزيد(١٣٧) ويذهب كراتشكوفسكى(١٣٨) إلى أن موطن المرشدات الملاحية هو سيراف وعمان .

لكن أن تتوافر هذه المرشدات شيء ، وأن تصل إلى البرتغاليين شيء آخر .

تناهت إلى البرتغاليين بعض المرشدات الملاحية العربية ، وجدير بالذكر أن سفائن البرتغاليين ونظرائهم الإسبان ، كانت تضم بين ملاحيها نفراً من أبناء الأمة الأندلسية المنكوبة والمغاربة ، فضلاً عن

---

(١٣٥) راه = طريق ، نامه = كتاب وقد يقال للراهنامج رحمانى ورهمانى ورمانى، راجع الفيروزابادى : القاموس المحيط ط ٢ (القاهرة ، مصطفى الحلبى ١٩٥٢) جـ١ ، ص ١٩٨ ، الزبيدى : تاج العروس ، تحقيق مصطفى حجازى (الكويت ١٩٦٩) جـ٥ ، ص ٦٠٢ ، وأنظر حوراني : المرجع نفسه، ص ١٩٩ ، كراتشكوفسكى : المرجع نفسه، جـ٢ ، ص ٥٦٧ .

(١٣٦) الفوائد ، جـ١ ، ص ٣ ظهر .

(137) Sarton : op cit, part II, vol II, p. 1047.

(١٣٨) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ٥٦٦ .

اليهود ، وخاصةً يهود قشتالة Castilla الذين هاجروا إلى البرتغال، بعد سقوط غرناطة Granada فى سنة ١٤٩٢/٨٩٧ ، وكـــان هؤلاء يقومون بمهمة الترجمة (١٣٩) .

فى سنة ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨م أبصر دا جاما Vasco da Gama سفناً عربيةً إلى الشمال من موزمبيق بها بوصلات ملاحية ، لتوجيه السفن وآلات الرصد وخارطات بحرية ، وعلى إحداها وجد مخطوطات عربية ، بعث بها إلى مانويل Manoel ملك البرتغال ، ويدين دالبوكيرك D'Albouquerque بفتوحاته فى عمان والخليج إلى خارطة بحرية من عمل ربان يدعى عمر (١٤٠) .

- 6 -

على أن أبرز من يمثل العبقرية العربية فى البحار الشرقية ، هو أسد البحار شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى (١٤١) .

---

(١٣٩) أنور عبدالعليم : إبن ماجد الملاح (القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٧) ص ٤٢ ـ ٤٤ .

(١٤٠) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ وانظر أيضا خوان برنيط، المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

(١٤١) يصف نفسه فى صفحة العنوان بكتاب الفوائد بأنه «رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله » ..

لانعرف الكثير عن حياة هذا الملاح النابغة ، وهو نفسه في مؤلفاته الكثيرة التى تناهى إلينا بعضها ، لا يأتى بما يفيد عن حياته هذه ، ومن الثابت إنه ينتمى إلى أسرة لها باع كبير بركوب البحر ، ولأبيه مصنف يعرف بالأرجوزة الحجازية ، فى نيف وألف بيت ، استدرك هو عليه .

ولد أحمد بن ماجد حوالى سنة ١٤٣٢/٨٣٥ [١٤٢] أو فى سنة ١٤٣٥/٨٣٨ [١٤٣] ، بجُلْفار «أو جُرْفار» [١٤٤] وأخذ بمقود السفينة، وهو بعد فى السادسة عشرة ، وظل سنى عمره يتنقل بين شواطئ مانعرفه اليوم بالمحيط الهندى ، وخرج علينا قبل وفاته حوالى سنة ١٥٠٤/٩١٠ باثنين وثلاثين إلى خمسة وثلاثين مؤلفاً [١٤٥] ، انتهى من آخرها فى سنة ١٤٩٤/٩٠٠ـ١٤٩٥ [١٤٦] .

على أن مؤلف ابن ماجد الرئيسى هو «الفوائد فى أصول علم

---

(١٤٢) كما يذهب عبدالهادى التازى : ابن ماجد والبرتغال (مسقط ، وزارة التراث ١٩٨٦) ص ٥٠ ـ ٥١ .

(١٤٣) كما يذهب أنور عبدالعليم : المرجع نفسه ، ص ١٧ .

(١٤٤) إمارة رأس الخيمة الحالية .

(١٤٥) ثلاث أزهار ، ص ٧٧ ـ ٧٨ من دراسة شوموفسكى .

(١٤٦) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٧٦ .

البحر والقواعد » الذى أخرجه فى سنة ١٤٨٩/٨٩٥ بعد أن نقحه عدة مرات[١٤٧] .

والفوائد معلمة بحرية واسعة ، تتضمن إثنتى عشرة فائدة (أى فصلا) . ويتحدث خلالها عن نشأة علم البحر ورواده الأول ، وما يتوجب للربان معرفته من أدوات ملاحية كالإبرة المغناطيسية ومعلومات فلكية ، تتصل بمنازل القمر ومواقع النجوم وارتفاعها ، ثم يتحدث عن البحار وأعماقها ودواماتها وتياراتها ومسالكها وشطوط المرجان فيها وموانيها والمسافات بينها والرياح التى تهب عليها ، وتوجيه السفينة وقيادتها ، ومواعيد الاقلاع المناسبة، والمد والجزر ، ويهتم بالشعاب والسواحل والجزر الكبار مثل القمر (مدغشقر) وشمطرة (سومطرة) وجاوة وزنجبار وألجو (تؤام) .

وإذا كان ابن ماجد قد استخدم لغة النثر فى كتابه الفوائد ، فإنه استخدم لغة الشعر وبخاصة الرجز فى سائر كتبه . وهى تتناول

---

(١٤٧) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٧٤ ، عبدالعليم : المرجع نفسه ، ص ١٤ .
وقد نشر فيران الفوائد والحاوية وبعض أراجيزه فى مجموعته :
Pilote de mers L'Inde de la Chine et de l'Indonésie (Paris Geuthner 1921 - 1922)
وتشمل الفوائد الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ حتى ص ٨٨ وجه والحاوية من ٨٨ ظهر إلى نهاية الجزء الخامس ، ص ١١٧ وجه واكتفى فى هذه النشرة بالتصوير فحسب مع مقدمة .

موضوعات متفرقة ، لكنها تدور فى إطار المرشدات الملاحية البورتولانية [١٤٨] .

أهم هذه الكتب هى « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار »[١٤٩] ، وهو أول مؤلفاته (٨٦٦هـ/١٤٦٢) و « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » [١٥٠] .

تقع الحاوية فى أكثر من ألف بيت ، توخى المؤلف خلالها التطبيق العملى ، مثل العلامات على اقتراب اليابسة ، والتقاويم المختلفة ، والرياح الموسمية ومهابها ، ومواسم الإقلاع ، وطرق الملاحة المختلفة فى المحيط الهندى ، وبحار هذا المحيط وخلجانه ، وطريقة ايجاد القبلة ووصف الطريق من مكة وجدة إلى الهند ، وغير ذلك من موضوعات .

أما ثلاث أزهار ، فتقترب فى حجمها من الحاوية (٩٣٥ بيتا) وتشترك مع سابقتها فى تعدد موضوعاتها ، وهى فى مجملها تقدم

---

(١٤٨) ثلاث أزهار ، ص ٩٠ ـ ٩١ من دراسة شوموفسكى .

(١٤٩) ورد هذا العنوان فى أول الحاوية ، جـ٤ ، ص ٨٨ ظهر لكنه فى آخرها، جـ٥ ، ص ١١٧ وجه يرد بعنوان «حاوية الاختصار فى أصول علم البحر الزخار » .

(١٥٠) حققها تيودور شوموفسكى فى سنة ١٩٤٨، ونشرها بموسكو فى سنة ١٩٥٧ ، وأعاد محمد منير مرسى نشرها مع ترجمة لدراسة شوموفسكى وتعديلات فى سنة ١٩٦٩ ، القاهرة ، عالم الكتب .

أوصافاً لطرق بحرية، فالزهرة الأولى تصف الطريق من مليبار إلى سفالة الزنج ، والثانية تصف الطريق بين الهند وسيلان وجاوة ، والأخيرة تصف الطريق بين جدة وعدن .

عنى بتراث هذا البحار العظيم ، وقام على دراسته ونشره المستشرق الفرنسي فيران G. Ferrand والمستشرق الروسي شوموفسكي T.Shumovski

يقول فيران [(١٥١)] .

«إن كتاب الفوائد يدعو إلى الإعجاب ، وأعتبره ذروة التأليف الفلكي الملاحي لعصره ، كما أعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات الملاحية الحديثة ، ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه ولم يعادله ـ باستثناء بعض التصحيحات في العروض ـ أي مرشد أوروبي في الملاحة الشراعية ، كما وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح الملاحية وطرق الملاحة الساحلية والبعيدة المدى تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل ، يمكن أن نتوقعها في ذلك العصر » .

لذلك يعد ابن ماجد هو مؤسس علوم البحار Oceanographia [(١٥٢)] ، سبقت مؤلفاته مؤلفات أقدم أوقيانوغرافي غربي ،

---

(١٥١) كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٥٢) أو Oceanologia

وهو لويجي فرناندومارسيلي Luigi Fernando Marsigli بسنوات مديدة [١٥٣] ، كما يعد الفوائد مصدراً أساسياً من مصادر سيدى على ريس (ت ١٥٦٢/٩٧٠) أمير البحر التركى [١٥٤] ، فى كتابه «المحيط» الذائع الصيت عند الأوربيين .

تناهت مرشدات ابن ماجد إلى البرتغاليين ، مثلما تناهت مرشدات غيره من المسلمين ، ومن الملاحظ أن أول مؤلفاته وهو حاوية الإختصار ، يعود إلى سنة ١٤٦٢/٨٩٦ ، أى قبل مقدمهم بنيف وثلاثين سنة .

نعرض الآن لنظرية هامة ، مؤداها أن ابن ماجد كان دليل دا جاما فى رحلته من ملندة على ساحل الزنج إلى قاليقوط على ساحل مليبار .

---

(١٥٣) عبدالعليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ٨ .

(١٥٤) سيدى على بن حسين ريس قائد بحرى تركى عاش فى زمن السلطان سليمان الاول المشرع (١٥٢٠/٩٢٦ - ١٥٦٦/٩٧٤) وشارك فى حروبه البرية فى أوربا ، وشارك أيضاً فى حروبه البحرية فى البحر المتوسط مع خير الدين برباروسا ، وفى الخليج العربى والمحيط الهندى ضد البرتغاليين ، واشتهر بكتابه «المحيط فى علم الأفلاك والأبحر» الذى ألفه فى سنة ١٥٥٦/٩٦٤ ، ووجد طريقه إلى أوربا فترجم الى عدة لغات .
راجع كراتشكوفسكى : المرجع نفسه : جـ٢ ، ص ٥٨٢ - ٥٨٥ ، وأنظر أيضا ثلاث أزهار ، ص ٧١ - ٧٢ من دراسة شوموفسكى .

فى أول الفصل الثانى من كتابه «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى»[١٥٥] يقول قطب الدين النهروالى :

« وقع فى أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول الفُرتقال[١٥٦] اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكان طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة فى البحر ، ويلجون فى الظلمات ، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ـ بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض ، وهى مادة أصل بحر النيل ـ ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل ، والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج ، لاتستقر به سفائنهم وتنكسر ، ولاينجو منهم أحد [١٥٧] . واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون فى ذلك المكان، ولايخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب [١٥٨] إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن

---

(١٥٥) ط ١ ، أشرف على طبعه حمد الجاسر (الرياض ، دار اليمامة ١٩٦٧) ص ١٨ ـ ١٩ .

(١٥٦) البرتغاليون .

(١٥٧) يقصد رأس الزوابع الذى صار بعد ذلك رأس الرجاء الصالح .

(١٥٨) سفينة .

ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له إلى ملندى [١٥٩] ، وعاشره فى السكر ، فعلمه الطريق فى حال سكره . وقال لهم : لاتقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا فى البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا فى بحر الهند ، وبنو كُوة [١٦٠] من بلاد الدكن قلعة يسمونها تونا ، ثم أخذوا هرموز [١٦١] ، وتقووا هنالك ، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين» .

يذهب نفر من الأوربيين إلى أن نص النهروالى واضح من حيث نسبة إرشاد البرتغاليين إلى ابن ماجد ، ويحاول فيران [١٦٢] أن يوفق بين هذا النص وبين ماورد فى المصادر البرتغالية من أن

---

(١٥٩) أى الملندى ، وهو كما يذهب فيران تحريف للفظة البرتغالية Almirante وهو اللقب الذى كان يحمله دا جاما . كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ٢ ص ٥٧١ .

(١٦٠) جوه Goa المستعمرة البرتغالية الرئيسية فى بلاد الهند .

(١٦١) هرمز وكانت مملكة ذات نشاط بحرى واسع ، ومايذكره النهروالى فى هذه العبارة غير دقيق فقد فتحت فى سنة ١٥٠٧م أى قبل بناء جوا ، كراتشكوفسكى، المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥١٧ .

(١٦٢) فى مقال له فى حوليات الجمعية الجغرافية بباريس .
Le Pilote Arabe de Vasco de Gama au Xve Siécle Annales de Géographie . tome , 31, pp. 289 - 307
وهذا حذوه تيودور شوموفسكى فى سنة ١٩٥٧ عندما نشر ثلاث أزهار =

الذى أرشدهم ربان مسلم من أهل كجرات Cujarat (بالهند) إسمه المعلم كاناكا (أوكانا) Malemo Canaqua (Cana) ، وأنه قاد دا جاما من ملندة (فى كينيا الحالية) فى الثلاثاء ٢٤ من أبريل ١٤٩٨ ، فوصل إلى قاليقوط (على ساحل مليبار بالهند) فى الأحد ٢٠ مايو من العام نفسه . ويذهب إلى أن ماليمو تعنى باللغة السواحلية (وبعض أصولها عربية) الشخص الماهر ، أما كاناكا فليست اسماً ، انما هى صفة مستمدة من اللفظة السنسكريتية Ganika ، وتعنى الحاسب أو المنجم ، أما عن أنه مسلم من كجرات ، فلأن ابن ماجد كان يعطيها اهتماماً خاصاً فى مؤلفاته، وربما كانت مركزاً لرحلاته البحرية (١٦٣) .

مما يعزز مايذهب إليه فيران أن النهروالى عاش فى عصر قريب من عصر ابن ماجد ، فقد ولد فى سنة ١٥١١/٩١٧ ، ومات فى سنة ١٥٨٢/٩٩٠ ، كما إن كتابه «البرق اليمانى» يعود تأليفه إلى سنة ١٥٧٧/٩٨٥ .

تحمس لهذه النظرية ـ التى مايزال الأوربيون يتمسكون بها ـ عدد من العرب (١٦٤) ، ووجدوا فيها مدعاةً لزهوهم على أنه يتضح لنا أن هذه النظرية غير صحيحة .

= ص ٨٤ ـ ٨٨، وكذلك كراتشكوفسكى : مع المخطوطات العربية ، ترجمة محمد منير مرسى (القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٩) ص ١٠٩ ـ ١١٥ .

(١٦٣) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٣ .

(٦٤) مثل أنور عبدالعليم فى كتابه ابن ماجد الملاح (١٩٦٧) ، ويضيف أن =

١ـ فالنهروالى يتفرد بين كتاب عصره بهذه الواقعة ، ولانجد خبراً عنها عند سليمان المهرى [١٦٥] (ت قبل ١٥٥٤/٩٦١) فى العمدة المهرية ، وابن الدَّيْبَع (ت ١٥٣٧/٩٤٤) فى الفضل المزيد[١٦٦] وزين الدين (ت بعد ١٥٨٣/٩٩١) فى تحفة المجاهدين وغيرهم ، وكان قميناً بسيدى على ريس ـ وهو شبه معاصر ـ لابن ماجد أن يشير إليها ، خصوصا وأنه نفسه كان له دور فى مناهضة البرتغاليين ، فضلاً عن أن كتب ابن ماجد ـ باعترافه ـ مصدر رئيسى من مصادر كتابه المحيط[١٦٧] .

= الحكومة البرتغالية أقامت له نصباً تذكارياً بملندة (ص ٢٧) وتبين فيما بعد أن هذا النصب أقيم على شرف دا جاما لا على شرف ابن ماجد ، ويحمل أعلاه شعار البرتغال ، والكل داخل صليب . أنظر : التازى : المرجع نفسه ، ص ٤٦ ، على أن عبدالعليم عاد عن رأيه هذا فى كتابه الآخر «الملاحة وعلوم البحار» (الذى نشره فى سنة ١٩٧٩) .

(١٦٥) ملاح كبير ينتمى الى بلاد الشحر (فى حضرموت) عاصر فى شبابه ابن ماجد ، وله خمسة كتب ، أشهرها «العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية» و«كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر» وتعد كتبه هذه من مصادر سيدى على ريس شأنها فى ذلك شأن كتب ابن ماجد ، راجع كراتشكوفسكى ، المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٧٢.

(١٦٦) ابن الديبع الشيبانى الزبيدى : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبارزبيد . تحقيق محمد عيسى صالحية (الكويت ١٩٨٢) .

(١٦٧) كراتشكوفسكى : المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٧١ ، عبدالعليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ٥٥ .

٢ ـ ولايرد اسم ابن ماجد فى المصادر البرتغالية ، رغماً عن سهولة نقله إلى لغتهم ، حتى وإن أتى هذا النقل محرفاً ، والجدير بالذكر أن البرتغاليين كانوا حريصين على ذكر أسماء من يعاونهم فى المشرق والمغرب ، وبعض هؤلاء كانت أسماؤهم أصعب فى نقلها إلى البرتغالية من اسم ابن ماجد[١٦٨].

٣ ـ ولايشير ابن ماجد إلى هذه الواقعة فى كتبه ، رغماً عن غزارة انتاجه، ورغماً عن إشارته إلى البرتغاليين فى غير موضع من كتبه ، وهو فى هذه الإشارات ، يرتبط ذكرهم عنده بذكريات غير طيبة[١٦٩] .

---

(١٦٨) التازى : المرجع نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٦٩) فى الأرجوزة السفالية ، وتعود الى سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م يصف وصول البرتغاليين إلى الهند ويقول :

وجاالكاليكوت خذ ذى الفايدة
لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما
والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس فى خوف واهتمام

ثلاث أزهار ، ص ٤٣ .

وفى الارجوزة المعلقية يقول :

يزوج الكافر مسلمات
ويأخذ المسلم كافرات

=

٤ ـ ومع خبرة ابن ماجد العظيمة ببحر الهند ، إلا إنه لدى وصول البرتغاليين إلى ملندة كان شيخاً فى السبعين أو نحوها ، أى فى سن قد لاتسمح له ببذل الجهد فى مرافقتهم ، ونعلم أنه حول هذه السن كف عن تأليف مرشداته الملاحية .

٥ـ بدأت رحلة دا جاما فى ٢٤ من أبريل ، وكان شهر رمضان قد بدأ قبل ذلك بأيام [١٧٠] ، فكيف يجوز لشيخ كبير أن يعاقر خمراً فى شهر الصيام ، وهو من هو فى تمسكه بأهداب هذا الدين القيم .

يقول فى الفوائد [١٧١] الذى ألفه قبل مقدم البرتغاليين بسنوات قليلة:

= إن قلت كفار فما هم كفرة
أو قلت إسلام فغير مخبره
عندهم السرقة قد سنوها
بينهم فليس ينكروها
ويأكل الكلب لحم المسلم
ما بينهم فليس فيهم محتم
ويشربون الخمر فى الأسواق
ولا يصلون على الإطلاق

المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(١٧٠) أول رمضان سنة ٩٠٤هـ = ٢ من ابريل سنة ١٤٩٨م .

(١٧١) جـ٣ ، ص ٥٨ ظهر .

«وينبغى أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك فى السفينة ضيف من أضياف البارى عز وجل ، فلا تغفل عن ذكر ه ، فإنه شديد العقاب ، وإنه لغفور رحيم ، لأنه يمهل ولايهمل ، فلا يغرنكم بالله الغرور» .

يتبين لنا مما سبق أن مرشد البرتغاليين إلى الهند ، هو الشخص نفسه الذى ورد ذكره فى كتبهم أى المعلم كاناكا ، ويلوح لنا إنه اسم دارج عند الهنود ، فمن الأطباء الذين يرد ذكرهم فى كتاب «الفهرست» [١٧٢] هندى اسمه كنكة وله أربعة كتب فى الطب ، كما كان على دراية بالنجوم .

أما أن يكون ارشاد ابن ماجد للبرتغاليين مدعاةً لزهو العرب ، فالصحيح عكس ذلك تماماً ، لأن أى ملاح عربى أقصر قامةً من ابن ماجد ، كان فى إمكانه أن يقوم بهذه المهمة ، خصوصاً وأن الطريق إلى بلاد الهند وإلى بلاد أبعد من الهند كانت مطروقةً بالنسبة للعرب منذ آماد وتوافرت لديهم خبرة بها ودربة عليها، كما إن البرتغاليين ونظراءهم الاسبان كان لهم تاريخ سئ مع

---

(١٧٢) تحقيق رضا ـ تجدد (طهران ١٩٧١) ص ٣٣٠.
وانظر أيضاً ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا (بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٦٥) ص ٤٧٣ .

فى الأندلس وبلاد المغرب ، أعادوه مرة أخرى ، حين أشعلوا النار فى البحار الشرقية .

ينبغى لنا أن نتساءل فى نهاية هذا البحث لماذا أتى النهروالى بهذه الرواية ؟

نعتقد أن الدافع إلى نسبة واقعة ارشاد البرتغاليين إلى أحمد بن ماجد هو إن من عادة الناس أن ينسبوا الحوادث الكبيرة إلى الشخصيات الكبيرة ، وكان اقتحام البرتغاليين البحار الشرقية حادثةً كبيرةً ، وكان ابن ماجد شخصيةً كبيرة .

لا يبعد أيضاً أن يكون ولاء النهروالى للعثمانيين وثناؤه عليهم[(١٧٣)] دافعاً للطعن فى غيرهم[(١٧٤)] .

وكان ابن ماجد ينتمى إلى عمان ، ولم تكن عمان تنتمى إلى العثمانيين .

---

(١٧٣) يقول عن السلطان مراد الثالث (٩٨٢/١٥٧٤ - ١٠٠٣/١٥٩٥) : «واستمر فشملنى بإنعام وأنعم على أولادى بالتدريس ، وأولاهم بكل إكرام وإحسان لطيف» ، ص ٣٦٢ .

(١٧٤) يصف هؤلاء بأنهم «عربان حمقى جهلاء ليسوا عقلاء ، بل غفلاء ينخدعون بالكلام الباطل ويصدقون بالمموهات الأباطل ، فركبوا من عقولهم متن عمياء ، وخبطوا خبط عشواء» ، ص ٣٦ - ٣٧ .

عرف العمانيون ـ وغيرهم من العرب ـ أقطار إفريقية الشرقية وأقطار آسيا الشرقية ، قبل أن يعرفها البرتغاليون ـ وغيرهم من الأوربيين ـ بآماد متباعدة ، وعرفوا أيضاً الطريق البحرية إلى هذه الأقطار .

رافقت هذه المعرفة معرفة بعلم البحر وعلوم أخرى تتصل بالبحر ، وعندما تناهت هذه المعرفة إلى البرتغاليين وغيرهم من الأوربيين صارت خير عون لهم فى رحلاتهم الكشفية .

الفصل الثالث

البحر فى الشعر الجاهلى

يقصد بالشعر الجاهلى – فى هذا الحديث – الشعر الذى نظمه العرب ، وينتمى إلى الفترة السابقة مباشرةً لظهور الإسلام .

يقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ) (١) :

« وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومُهَلْهِل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام » .

والصلات حميمة بين الشعر والتاريخ ، فالشعر (والأدب على نحو عام) صورة العصر ، ومن ثم فهو مصدر لا غنىً عنه لدى كتابة التاريخ ، وفيما يختص بالشعر الجاهلى ، فقديماً قالوا : « الشعر ديوان العرب » ، أى هو السجل الذى حفظ لهم تراثهم ، وليس فى هذه المقولة كبير مبالغة ، فالصدق سمة واضحة فى

---

* بحث أُلقى فى المؤتمر الأول لإتحاد المؤرخين العرب ٦ – ٨ نوفمبر ١٩٩٣ ، ونشر فى الكتاب الجامع لأعمال هذا المؤتمر ١٩٩٤ .

(١) الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون . بيروت، دار الجيل ، ١٩٩٢م ص٧٤.

الشعر الجاهلى ، والشاعر يستمد موضوعاته وصوره ، بل وخياله الشعرى أيضاً من البيئة حوله ، وهى فى مجملها بسيطة . ولم يكن تلقى الثقافة من منابعها فى الأقطار المجاورة ظاهرةً عامةً ، كما إن التدوين ـ إذا صح ـ كان محدوداً ... وعليه فالشعر الجاهلى مصدر هام ، أو هو المصدر الأهم فى التأريخ للعصر الجاهلى .

ولا يخفى أن كثيراً من الشعر الذى ندعوه بالجاهلى منتحل ، بل إن من الباحثين(٢) من ذهبوا إلى انتحاله جملةً ، لذلك سوف يكون معتمدنا هنا على ما صار الإتفاق على وثاقته ، وأخصُّه فى المعلقات والمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب ، وبعض من دواوين الشعراء أنفسهم وديوان الهُذَليين (٣) .

---

(٢) مارجوليوث The Origins of Arabic Poetry . S. D. Margoliouth فى . J. R. A. S. 1925. pp. 417 - 449

وتابعه طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » ١٩٢٦ ، ثم نقح هذا الكتاب وزاد عليه ، ونشره بعنوان ، فى الأدب الجاهلى ١٩٢٧ ، وتعددت طبعاته .

(٣) شوقى ضيف: العصر الجاهلى . ط٤ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤م . ص ١٧٦ ـ ١٨٢ ، وانظر أيضاً ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى . ط٣. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦م . الفصل الرابع من الباب الخامس ص٥٩٢ ـ ٦١٤ .

ومما تجب ملاحظته أن ما وصل إلينا من شعر البحر قليل ، ووصلت الحال بكاتب كبير كالجاحظ[٤] إلى أن يقتضب في حديثه عن السمك وغيره من الأحياء المائية « لأنى لم أجد فى أكثره شعراً ، يجمع المشاهد ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة » .

ووصلت الحال بكاتب آخر كبير ـ وإن كان معاصراً ـ وهو طه حسين (ت١٩٧٣م)[٥] إلى أن يقرر إن الشعر الذى تناهى إلينا لا يرد فيه ذكر البحر ، ومن ثم فهو لا يمثل حياة أولئك الجاهليين على نحو دقيق ، لأنهم عرفوا البحر وتمرسوا به ، وورد ذكره في القرآن الكريم ، وصار ذلك دليلاً على انتحاله .

وجدير بالذكر أن أقطار الجزيرة تفاوت حظها من شعر البحر قبل الإسلام ، فاليمن ـ وهى أعرق هذه الأقطار ـ وصلتها بالبحر قديمة ، لم يصل إلينا من شعرها سوى القليل ، والأقل منه شعر البحر[٦] . أما الحجاز ، وإن كان حظها أوفر فى تراثها الشعرى ،

---

(٤) المصدر نفسه جـ٦ ص ١٦ .

(٥) فى الأدب الجاهلى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤م . ص ٧٩ .

(٦) ومرجع ذلك أن العرب فى أنحاء متفرقة من بلاد اليمن ، كانوا يتحدثون بلغة بعيدة عن اللغة العربية التى نعرفها . يقول أبو عمرو بن العلاء =

إلا إننا لا نجد للبحر صدىً كبيراً فى ديوان كبير ضم شعر قبيلة هُذَيْل ، وهو الديوان الوحيد الذى تبقى من دواوين القبائل [٧] .

- 1 -

ويتضح لنا إن الكثرة الغالبة من شعر البحر تنتمي إلى البحرين اقليماً وإلى ربيعة قبيلاً ، وقد كان للبحرين[٨] (وعمان أيضًا) تاريخ بحرى عريق ، وبذا يصير البحر فى هذه الكثرة الغالبة هو بحر فارس.

= (ت١٥٣هـ) : «ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا» ابن سلام : طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود شاكر . القاهرة ، مطبعة المدنى ، ١٩٧٤م . جـ١ ص ١١ .

(٧) لم يكن لبلاد الحجاز توجه بحرى ، وكانت السفن اليونانية والرومانية تجتنبها . جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . ط٢ . بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٧٦م . جـ٧ ص ٢٧١ ، ومع كون أهل مكة تجارا ، إلا إنهم كانوا يتنقلون بتجارتهم إلى الشام براً وإلى اليمن ، واشتهر عن عمر ـ رضى الله عنه ـ تهيبه للبحر وايصاؤه قواده بعدم الإقدام على ركوبه . البلاذرى : فتوح البلدان . تحقيق صلاح الدين المنجد . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٧م . ق٣ ص ٥٣٠ .

(٨) البحرين هى القسم من الجزيرة العربية الذى يقع على بحر فارس ، ويمتد من كاظمة ، (فى الكويت المعاصرة) شمالاً إلى جرفار أو جلفار (رأس الخيمة المعاصرة) جنوباً . راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان . بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٧٩ . جـ١ ص ٣٤٧ .

عرف العرب البحر على أنه الماء الكثير ملحاً كان أم عذباً (٩)، وكان عدى بن زيد العبادى يعنى الفرات فى هذين البيتين (١٠):

وتبيَّن رب الخَوَرْنَقِ إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تذكيرُ

سره حاله وكثرة ما يملك والبحر مُعرِضاً والسدير

وقد أراد الشاعر هنا نهر الفرات، لأن رب الخورنق كان يشرف على الفرات، وسوف نفهم البحر فى هذا البحث على أنه الماء الكثير ملحاً وليس عذباً.

---

(٩) ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله الكبير وآخرين. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١. جـ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٦. وقد اتسع مفهوم البحر عند بعض الشعراء. فأطلقه الأعشى على بانِقْيا، وهو نهر من نهيرات الفرات. يقول الأعشى:

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذ راح مُفْعَما

ديوانه. تحقيق محمد محمد حسين. القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٥٠. ص ٢٩٧. كما إن من الشعراء من أطلق على النهر تعبير خليج وهو تعبير اختص بعد بالبحر. يقول الأعشى أيضاً:

وما مُزْبِدٌ من خليج الفرا ت يُغَشِّى الأكام ويعلو الجسورا

ديوانه ص ٢٩٩.

(١٠) ابن قتيبة: الشعر والشعراء. تحقيق أحمد شاكر. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٤٦هـ. جـ١ ص ١٧٧.

وعرف العرب السفينة ـ مركب الماء ـ وتجمع بسفائن وسفن وسفين [١١]، وأطلقوا عليها عدة مسميات تنوه إلى علاقتهم الحميمة بالبحر ، فاللغة بنى معنوية لواقع وتتناسب طردياً معه .

من هذه المسميات خَلِيَّة ـ وتجمع خلايا ـ ويقصد بها السفينة العظيمة معها قارب [١٢].

يقول طَرَفَة [١٣]:

كأن حُدوج[١٤] المالكية[١٥] غُدوةً

خلايا سفين بالنواصف[١٦] من دَدِ[١٧]

ويفهم من بيت للأعشى[١٨] يمدح قيس بن معد يكرب

---

(١١) لسان العرب . جـ٣ ص ٢٠٣١ .

(١٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢٥٧ ، وانظر أيضًا : ابن الأنبارى : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . ط٤ . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، ص١٣٥ .

(١٣) ديوانه ص ٢٠ ، ابن الأنبارى : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١٤) الحدْج مركب للنساء .

(١٥) صاحبة الشاعر .

(١٦) وديان .

(١٧) اسم مكان .

(١٨) ديوانه . بيروت ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر . د. ت . ص ٣٩ .

الكندى أن كان لها قلع عدة :

يكُــبُّ[١٩] الخليــة ذات القــلا

ع قد كاد جُؤْجؤُها[٢٠] ينحطمْ

ونعاود معلقة طرفة ، فهو يشير إلى نوع آخر من السفن فى البيت الآتى :

عَــدَوْلِيَّةٌ أو مــن سفيــن يا مــن[٢١]

يجور بها[٢٢] الملاح طوراً ويهتدى[٢٣]

والعدولية من السفن الكبيرة ، شأنها فى ذلك شأن الخلية ، وقد اختلفوا فى شأنها ، ويذهب ابن الأنبارى (ت٣٢٨هـ)[٢٤] والتبريزى (ت٥٠٢هـ)[٢٥] إلى أنهـا منسوبة إلى جزيرة من جزر

---

(١٩) يقلب .

(٢٠) صدرها .

(٢١) أنظر ما يرد عنه بعد .

(٢٢) يعدل بها عن الطريق الصحيحة .

(٢٣) يعاود مرة أخرى هذه الطريق .

(٢٤) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

(٢٥) شرح القصائد العشر . تحقيق السيد محمد الخضر . القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية . ص ٥٧ .

البحر ، يقال لها عَدَوْلَى أسفل من أُوال (جزيرة البحرين الكبرى) أو إلى قوم كانوا ينزلون هَجَر (كبرى مدن البحرين) ليسوا من ربيعة ولا من مضر ولا من اليمن ، ويذهب الأصمعي (ت٢١٦هـ)[٢٦] إلى أنها قرية بالبحرين . ويترجح لدينا نسبة هذه السفن إلى عدولى المكان ، وليس الناس[٢٧] ، لأنه ليس لدينا خبر عنهم فى كتب الأنساب . وإذا صح تفسير حورانى [٢٨]، فإن عدولى ربما تكون Adulis وهى ميناء تجارى هام على ساحل الحبشة ، وبذا تصير ـ من ثم ـ علاقات بحرية بين البحرين والحبشة .

وقد اشتهرت هذه السفن بسرعتها ، وهو ما يؤيده هذا البيت لأبى دُؤاد الإيادى [٢٩] :

---

(٢٦) الأصمعيات . ط٢ . تحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ . ص ١٨٦ .

(٢٧) وهو ما يذكره البكرى (ت٤٨٧هـ) فى معجم ما استعجم . ط١ . تحقيق مصطفى السقا . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ . جـ٣ ص ٩٢٦ .

(٢٨) العرب والملاحة فى المحيط الهندى . القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ . ص ٢١ ، وحاشية ٣ للمترجم الفاضل السيد يعقوب بكر .

(٢٩) الأصمعيات ص ١٨٦ .

هل ترى من ظعائن[٣٠] باكرات[٣١]

كالعدولى سيرهن انقحامُ

ونعاود معلقة طرفة :

وأتلعُ[٣٢] نهاضٌ[٣٣] إذا صعّدَت به

كسُكّان بُوصيٍّ بدجلةَ مُصْعِدِ

والبوصى لفظة فارسية معربة أصلها بوزى [٣٤]، ويتضح لدينا أن البوصى سفينة صغيرة أو زورق وتعنى أحياناً ملاحاً [٣٥] .

ومن السفن القَرّواء ، وهى السفينة الطويلة القرا وهو الظهر .

---

(٣٠) الإبل عليها هوادج النساء .

(٣١) مبكرات .

(٣٢) طويل صفة للعنق .

(٣٣) كثير الإرتفاع .

(٣٤) الجواليقى : المعرب من الكلام الأعجمى . تحقيق أحمد شاكر . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٦١هـ . ص ٥٤ .

(٣٥) لسان العرب . جـ١ ص ٣٨٦ ، الفيروزابادى : القاموس المحيط . القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٧ . جـ٢ ص ٢٩٤ ، وانظر أيضًا الزبيدى : تاج العروس . تحقيق عبد الستار فراج . الكويت ، ١٩٦٥ ، ج١٧ ص٥٠.

يصف المُثَقّب العبدى ناقته فيقول [٣٦]:

كأن الكُور[٣٧] والأنْساع[٣٨] منها

على قرواءَ ماهرةٍ[٣٩] دهينِ[٤٠]

ويقول بشر بن أبى خازم الأسدى ـ أسد خزيمة ـ[٤١]

أجالد صفهم ولقد أرانى

على قَرْواءَ تسجد للرياح

ومنها أيضًا الخُلُج (جمع خليج) والقراقير (جمع قُرْقور).

---

(٣٦) ديوانه . تحقيق حسن كامل الصيرفى . القاهرة ، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١ ، ص ١٨٨ . وانظر أيضًا المفضل الضبى : المفضليات . ط٤ . تحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون . القاهرة دار المعارف ١٩٦٤ . ص٢١٩ .

(٣٧) كور الرجل خشبته وأداته .

(٣٨) جمع نسع وهو سير تشد به الرحال .

(٣٩) سابحة .

(٤٠) مدهونة .

(٤١) ديوانه . تحقيق عزة حسن . دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧ .

يقول النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر [٤٢] :

له بحر يُقَمِّص [٤٣] بالعدولي

وبالخُلْج المحملة الثقال

مُضِرٌّ [٤٤] بالقصور يذود عنها

قراقير النبيط [٤٥] إلى التلال

ويتضح من البيتين أن الخلج كانت سفناً كبيرةً تستخدم فى نقل السلع ، لكنها لا تعدل العدولية [٤٦] ، أما القراقير فهى سفن طويلة [٤٧] ، ويترجح أنها ليست كبيرةً ، واختص بها النبط فى أرياف العراق .

وورد فى الأصمعيات [٤٨] خبر عن سفينة تدعى الغسّانية .

يقول ضابئ بن الحارث البُرْجُمى :

تدافع غسانية وسط لجّة [٤٩] إذا هى همت يوم ريح لترسلا

---

(٤٢) ديوانه . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٥ ، ص ١٥٢ .

(٤٣) يرتفع بها ويقفز .

(٤٤) دان لها لاصق بها .

(٤٥) النّبط تعبير كان يطلق على السكان الأصليين للعراق فى عصر مملكة الحيرة واختصوا بزراعة الأرض .

(٤٦) لسان العرب . جـ٢ ص ١٢٢٥ .

(٤٧) المصدر نفسه جـ٥ ص ٣٥٨٣ ، تاج العروس . جـ٢ ص ٤٠١ .

(٤٨) ص ١٨١ .

(٤٩) معظم الماء .

وواضح إنها تنسب إلى غسان وليس لدينا معلومات عنها .

وعرف عرب الجاهلية الطَوْف ، وركبوا به البحر ، وإن لم يوغلوا فيه بطبيعة الحال [٥٠].

- 2 -

درج العرب على ابتناء سفنهم ، دون أن يتخذوا مسامير ، فكان يربطون سقائف السفينة ـ وهى ألواحها ـ بالدُسُر (جمع دِسار) وهى خيوط من الليف (النارجيل) ويطلونها بالقار[٥١].

يقول بشر بن أبى خازم[٥٢] :

مُعَبَّدَةٌ[٥٣] السقائف ذات دُسْرٍ
مُضَبَّرَةٌ[٥٤] جوانبها رداحٍ[٥٥]

---

(٥٠) يقول أبو صخر الهذلى وهو شاعر أموى معبراً عن حال جرت عليها العرب :

تمنيت من حبى عُلَيَّةَ أننا على رمثٍ فى الشرْم ليس لنا وَفْرٌ

السكرى : شرح أشعار الهذليين . تحقيق عبد الستار فراج . القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٦٩ ، جـ٢ ص٩٥٨ ، وانظر أيضًا . لسان العرب . جـ٣ ص ١٧٢٤ . والرمثْ هو الطوف والجمع أرمات والشرم ، موضع فى البحر ، والوفر المتاع .

(٥١) المسعودى : مروج الذهب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٢ . جـ١ ص ١٦٣ ، لسان العرب جـ٢ ص ١٣٧٢ ، وانظر أيضاً : حورانى . المرجع نفسه ص ٢٤٩ ـ ٢٥٨ .

(٥٢) ديوانه ص ٤٧ .

(٥٣) مقيرة .

(٥٤) مجتمعة ألواحها لا فروج لها .

(٥٥) واسعة .

ويضيف لبيد ناقته فيقول (٥٦):

كسفينة الهندى طابق (٥٧) درْءَها (٥٨)

بسقائف مشبوحة (٥٩) ودهان

وكان لكل سفينة شراع (أو قلع) ، وقد تتعدد هذه الشرع، كما أوضحنا قبلاً ، ويحمل الشراع على دَقل (أو دَوْقَل) ـ أى الصارى ـ وهو خشبة طويلة ، تشد فى وسط السفينة (٦٠).

ويصف الشعراء صدر السفينة بالجُؤجُؤ أو الحيزوم

يقول المثقب العبدى (٦١):

يشق الماء جُؤجُؤها ويعلو

غَوارب (٦٢) كل ذى حدب (٦٣) بَطينِ (٦٤)

---

(٥٦) ديوانه ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٥٧) أحكم عملها .

(٥٨) فرجة أو عيب .

(٥٩) مشقوقة .

(٦٠) لسان العرب . جـ٢ ص ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ .

(٦١) ديوانه ص ١٩٠ ، المفضليات ص ٢٩١ .

(٦٢) أعالى الموج .

(٦٣) ارتفاع الموج .

(٦٤) بعيد واسع .

ويقول طرفة(٦٥) :

يَشُقُّ حَبابَ الماء حَيْزومُها بها

كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ(٦٦) باليد

ولا بد للسفينة من سُكّان يحدد اتجاهها ويعدله ، ودعى أيضًا بالخَيْزُرانة ، كما دعى بالكَوْثَل ، ويطلق هذا الاسم الأخير أحيانًا على مؤخرة السفينة(٦٧) ، وجرت العادة أن يهرع إليه القوم فى حال الخطر .

يقول طرفة :

وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد

ويقول النابغة :(٦٨)

يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصمًا بالخَيْزُرانة بعد الأَيْنِ(٦٩) والنَّجَدِ(٧٠)

---

(٦٥) ديوانه ص ١٩ ــ ٢٠ ، ابن الأنبارى . المصدر نفسه ص ١٣٨ .

(٦٦) المفايلة ضرب من اللعب ، وهو أن يجمع أحدهم التراب ، فيدفن فيه شيئًا ، ثم يقسم التراب قسمين ، ويسأل عن الدفين فى أيهما .

(٦٧) لسان العرب جـ٢ ص ١١٤٨ ــ ١١٤٩ .

(٦٨) ديوانه ص ٢٦ ، التبريزى : المصدر نفسه ص ٣٠١ .

(٦٩) الإعياء .

(٧٠) العرق من الكرب .

ويقول الأعشى :(٧١)

تكأكأ(٧٢) ملاحها وسطها

من الخوف كوثلها يلتزم

أما عن مجاديف السفينة (أو مجاذيفها) ، فلا نعلم كم كان عددها ، ويرجح أنها كانت تتفاوت بين سفينة وأخرى ، وذكر المرقش الأكبر(٧٣) المجداف ، واستعارة ليطلقه على السوط .

تعدو إذا حُرِّك مِجدافها

عدو رباع(٧٤) مُفْرَدٍ(٧٥) كالزُّلَمْ(٧٦)

وكان لكل سفينة ملاحون يقومون عليها ، ودعى الملاح بالصارى أو الصوارى ، ويجمع بالصرارى أو الصراريين . كما كان يطلق عليه تعبير نوتى ويجمع بنوات ، وأصل هذه الكلمة

---

(٧١) ديوانه ص ٣٩ .

(٧٢) تمايل .

(٧٣) المفضليات ص ٢٣٠ .

(٧٤) ثور .

(٧٥) الذى أفرد خشية القناص فهو لا يألو عدواً .

(٧٦) قدح الميسر .

رومى ، وأحياناً كان يطلق على الملاح تعبير عَرَكى [٧٧] ، كما قد يتسمى بالبوصى .

يقول يزيد بن الخَذَّاق العبدى [٧٨] :

ألا ابن المُعلَّى خلعتنـا وحسبتنـا

صراريَّ نعطى الماكسين مُكوسا

ويقول الأعشى [٧٩] :

إذا رهــب المــوج نُوتِيُّــه

يحط القلاع ويرخى الزِّيار [٨٠]

ويقول زهير [٨١] :

يغشّى الحُداةُ بهم وَعْث الكثيب [٨٢] كما

يُغْشِى السفائنَ موجَ اللُّجة العَرَكُ

---

(٧٧) لسان العرب جـ٤ ص ٢٤٣١ ، ٢٩١٢ ، جـ٦ ص ٤٢٥٥ ، ٤٥٧٠ ، تاج العروس جـ١٢ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٧٨) المفضليات ص ٢٩٨ ، الحيوان جـ٦ ص ١٤٩ .

(٧٩) ديوانه ص ٥١ .

(٨٠) الحبال .

(٨١) ديوانه . بيروت ، دار صادر ، د. ت. ص ٤٨ .

(٨٢) الرمل .

ويقول الأعشى أيضاً :[٨٣]

مثل الفراتي إذا ما طما

يقذف بالبوصي والماهر[٨٤]

ولم يصل إلينا من أسماء الملاحين (أو أصحاب السفن) الذين ينتمون إلى العصر الجاهلى سوى ابن يا من ، الذى ورد اسمه فى معلقة طرفة :

عدولية أو من سفين ابن يا من

يجور بها الملاح طوراً ويهتدى

ويذهب الشراح القدماء[٨٥] إلى أن ابن يا من هذا ملاح أو تاجر من أهل هجر ، أو من البحرين على نحو عام ، وكان له (أو لآله) نخيل مشهور يقع قريبًا من حصنى الصفا والمُشَقَّر ، كما

---

(٨٣) ديوانه ص ١٤١ .

(٨٤) السابح أو الغواص .

(٨٥) ابن الأنبارى : المصدر نفسه ص ١٣٧ ، أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب . تحقيق على محمد البجاوى . القاهرة ، دار نهضة مصر . ١٩٨١ . ص ٣٠٥ ، التبريزى : المصدر نفسه ص ٥٧ .

يتضح من بيت للأعشى[٨٦] ومن بيت آخر لامرئ القيس[٨٧].

ويترجح لدينا أن ابن يا من غير عربى، فربما لا نشاهد عربيًا تسمى بهذا الاسم ويغلب أنه يهودى[٨٨]، كما إن اسمه أيضًا يروى ابن نبتل[٨٩]، وربما يكون نبتل هذا تحريفًا لنفتالى وهو من الأسماء اليهودية[٩٠].

وإذا صح هذا الفرض، يكون لليهود وجود فى البحرين قبل الإسلام، كما يكون لهم وجود فى نشاطها البحرى.

---

(٨٦) **فلما استقلّت قلت نخل ابن يامن   أهُنَّ أم اللاتى تُربّت يثْرِبُ**

ديوانه ص ٢٠١، واستقل: ارتحل وربت: ربى وترب: اعتنى.

(٨٧) **أو المُكْرَعاتِ من نخيل ابن يامنٍ   دُوَيْن الصفَا اللائى يلين المُشَقَّرا**

ديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. دار المعارف، ١٩٨٤. ص ٥٧. والمكرعات النخيل المغروسات فى الماء.

(٨٨) بين اليهود الذين أسلموا بعد إجلاء بنى النضير عن المدينة فى سنة ٤هـ يامين بن عمير بن كعب النضرى. سيرة ابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. بيروت، دار الكلمة، د. ت. جـ٣ ص ٢٠٢، الطبرى: تاريخه. ط٤. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩. جـ٢ ص ٥٥٥.

(٨٩) التبريزى: المصدر نفسه ص ٥٨.

(٩٠) جواد على: المرجع نفسه. جـ٦ ص ٥٣٢.

- 3 -

ونتساءل بعد إلى أين كانت تمضى هذه السفن ؟

الإجابة لا نجدها على نحو واضح فى كتب الشعر ، إنما نجدها فى كتب التاريخ ، وفى كتب الجغرافية ، وعرضنا لشيء من ذلك فى كتاب أصدرناه قبل سنوات [(٩١)] ، والأعشى - وهو أكثر هؤلاء أسفاراً ، وأكثرهم احتفالاً بالبحر في شعره - لا يشير - فيما خلا الحبشة - إلى أسفار بحرية ، وغاية ما نظفر به منه هذه الأبيات [(٩٢)] :

وقد طفت للمال آفاقه عُمانَ فحمصَ فأوريشلَمْ
أتيت النجاشيَّ فى أرضه وأرض النَّبيط وأرض العجم
فنجرانَ فالسَّروَ من حميَرٍ فأىَّ مرامٍ له لم أرُم
ومن بعد ذاك إلى حَضْرَمَوْت فأوفيت [(٩٣)] هَمِّى وحيناً أَهُم [(٩٤)]

وأقرب ما لدينا من شعر يعبر عن هذه الرحلات البحرية ، ما

---

(٩١) وهو كتابنا هذا فى طبعته الأولى ١٩٨٩ .
(٩٢) ديوانه ص ٤١ .
(٩٣) أتممت .
(٩٤) من الهمة أى العزم .

يقوله بشر بن أبى خازم : (٩٥)

أجالد صفهم ولقد أرانى على قرواءَ تسجد للرياح
معبدة السقائف ذات دسرٍ مضبرة جوانبها رداح
إذا ركبت بصاحبها خليجاً تذكر ما لديه من جُناح (٩٦)
يمر الموج تحت مَشَجَّرات (٩٧) يلين الماء بالخُشُب الصحاح
ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القِماح (٩٨)

فالشاعر هنا يتحدث عن الأهوال التى شاهدها فى هذه الرحلة، وكيف علا الموج السفينة ، ففزع ركابها ، وصار كل واحَد منهم يتذكر ما ارتكبه من ذنوب ، وقعد الجميع لدى أطراف السفينة ، وقد أغلقوا عيونهم رهبةً .

على أنه من خلال ما لدينا من أشعار جاهلية تتردد أسماء مواقع ينتمى معظمها إلى البحرين ، ومنها دد قرب كاظمة فى

---

(٩٥) ديوانه ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٩٦) إثم أو ذنب .

(٩٧) سفن .

(٩٨) التى ترفع رءوسها وتغض بأبصارها عند الحوض ولا تشرب الماء لشدة برده أو لعلة أخرى .

الشمال[٩٩] ويرد ذكرها فى معلقة طرفة الذى يشبه حدوج صاحبته المالكية لدى فراقها بالسفن العظيمة التى ترفأ بدد .

ويقول عمرو بن قميئة يتذكر حبيبته :[١٠٠]

هل ترى عِيَرها تُجيز سِراعًا كالعَدَوْلِيِّ رائحًا من أوالِ

ومن المواقع التى يتردد ذكرها كذلك دارين وسماهيج وصحار والقطيف وتؤام ودبا والخط وهجر [١٠١] .

ونهضت لدى بعض من هذه المواقع حصون لحمايتها وحماية التجارة الواردة إليها ، وأهمها حصنا الصفا والمُشقَّر[١٠٢] بالقرب من هجر ، ويتردد ذكر هذا الحصن الأخير فى كثير من

---

(٩٩) الهمدانى : صفة جزيرة العرب . تحقيق ميلز . أمستردام ، المطبعة الشرقية ، ١٩٦٨ . ص١٧٤ .

(١٠٠) ديوانه . تحقيق تشارلز ليال . كمبردج ، ١٩١٩ . ص ٣١ .

(١٠١) كثيراً ما كان يطلق على بلاد البحرين الخط أوهجر من باب تغليب الجزء على الكل . راجع معجم ما استعجم جـ٢ ص ٥٠٢ ، معجم البلدان جـ٢ ص ٣٧٨ ، جـ٥ ص ٣٩٣ .

(١٠٢) أنظر معجم ما استعجم . جـ٤ ص ١٢٣٢ ـ ١٢٣٣ ، معجم البلدان جـ٣ ص ٤١١ ، جـ٥ ص ١٣٤ . وقد لجأ إليه المنذر بن النعمان بن المنذر (المعروف بالمنذر المغرور) إبان حروب الردة ثم هرب وقتل . البلاذرى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

الأشعار[١٠٣] الجاهلية ، ويعزى بناؤه إلى الفرس [١٠٤].

يقول المُخبَّل السعدى :[١٠٥]

ولئن بنيت لى المشقر فى هَضْب تُقَصر دونه العُصْمُ[١٠٦]

وأقيمت لدى هذه المواقع أيضًا أسواق ، أهمها المشقر وصحار ودبا ، وفيها كان يتبادل التجار العرب والغير العرب تجاراتهم ، وكان ملوك البحرين ـ رهط المنذر بن ساوى ـ وملوك عمان ـ رهط الجُلَنْدَى ـ يعشرونهم[١٠٧] ، وإلى ذلك يشير هذا البيت ليزيد بن الخذاق العبدى ، مخاطبًا الجارود بن المعلى سيد عبد القيس :[١٠٨]

---

(١٠٣) ويذهب الجاحظ إلى أنه نقشت على هذا الحصن كتابات ، شأنه شأن غيره من الأبنية القديمة كقصر غُمدان باليمن . المصدر نفسه جـ١ ص٦٩ .

(١٠٤) الطبرى : المصدر نفسه جـ٢ ص ١٧٠ .

(١٠٥) المفضليات ص ١١٨ .

(١٠٦) الوعول .

(١٠٧) ابن حبيب : المحبر . حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٢م . ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ . المرزوقى . الأزمنة والأمكنة . ط١ حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٣٢هـ ، جـ٢ ص ١٦٢ .

(١٠٨) المفضليات ص ٢٩٨ ، الحيوان جـ١ ص ٣٢٧ ، جـ٦ ص ١٤٩ .

ألا ابن المعلــى خلتنا وحسبتنــا

صرارى نعطى الماكسين مكوسا(١٠٩)

أما ما كانت تحمله السفن مع سلع ، فقد أجمل بشر بن أبى خازم ذكر بعض منها فى هذين البيتين :

فقدأوقِرْنَ(١١٠) من قُسْط(١١١) ورَنْد(١١٢)

ومــن مسك أحمَّ(١١٣) ومــن ســلاحِ

فطابــت ريحهـــن وهـــن جُــونٌ(١١٤) .

جآجئهــن فـــى لُجَــجٍ مِـــلاحِ(١١٥)

ونبدأ بالسلاح لأهميته بالنسبة للبيئة الجاهلية ، وكان العرب يترقبون السفن التى تحمله بالحاح .

---

(١٠٩) « والمكس دراهم كـــانت « تؤخــذ من بائع السلع فى الأســـواق فى الجاهلية ، والماكس العشار ويقال للعشار صاحب المكس » لسان العرب جـ٦ ص ٤٢٤٨ ، وانظر أيضاً تاج العروس ، جـ١٦ ص ٥١٤ .

(١١٠) حملن .

(١١١) عود هندى يجعل فى البخور والدواء .

(١١٢) عود طيب الرائحة .

(١١٣) أسود .

(١١٤) سود .

(١١٥) الماء الملح .

يقول النابغة :[١١٦]

وظل كأنه بجماد واف[١١٧]   بشير سفينة يهدى رماحا

أى إن البشير كان يبشر القوم بمقدم السفينة وعليها الرماح.

وكانت الرماح (أو القنا) شأنها شأن السيوف ـ أو بعض السيوف ـ ترد من بلاد الهند إلى الخط [١١٨]، فنسبت إليها ، وصار يقال القنا الخطية ، أو الخطية فحسب ، وكانت تتميز عن غيرها من الرماح باللدانة ، وولع العرب باقتنائها .

يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :[١١٩]

نُطاعنُ ما تراخَى الناسُ عنا   ونضرب بالسيوف إذا غُشينا

بِسُمر من قَنا الخَطِّىِّ لُدْن   ذوابل[١٢٠] أو ببيض يعتلينا

---

(١١٦) ديوانه ص ٢١٦ .

(١١٧) اسم موضع .

(١١٨) الأزهرى : تهذيب اللغة . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، جـ٦ ص ٥٥٧ ، ابن رشيق : العمدة . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٣٤ . جـ٢ ص٢٢٣ ، وانظر أيضًا معجم ما استعجم . جـ٢ ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ . معجم البلدان . جـ٢ ص ٣٧٨ .

(١١٩) ابن الأنبارى : المصدر نفسه . ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، التبريزى : المصدر نفسه . ص ٢٢٠ .

(١٢٠) بها بعض اليبس .

ويقول عُرْوَة بن الورد :[١٢١]

بكل رقاق الشفرتين مهند ولدن من الخطى قد طُرَّ[١٢٢] أسمرا

إلى جانب السلاح كانت المراكب ـ كما يتضح من قصيدة بشر بن أبى خازم ـ تأتى من الهند بأنواع الطيب الذى اشتهرت بها دارين ، فكان يقال طيب دارين [١٢٣] .

يقول النابغة الجعدى :[١٢٤]

خنيفاً[١٢٥] عراقياً وريْطاً[١٢٦] شآمياً

ومعتصراً من مِسك دارين أذفرا[١٢٧]

أما الأعشى[١٢٨] فيصف الخمر بأن رائحتها فواحة فى البيت

---

(١٢١) ديوانه . بيروت . دار صادر ، د. ت. ص ٤١ .
(١٢٢) قدسنّ .
(١٢٣) معجم ما استعجم . جـ٢ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ ومعجم البلدان جـ٢ ص ٤٣٢ .
(١٢٤) جمهرة أشعار العرب ص ٦٢٠ .
(١٢٥) ثوب كتان أبيض غليظ .
(١٢٦) واحدته ريْطَة وهى ملاءة أو ثوب رقيق لين .
(١٢٧) الشديد الرائحة .
(١٢٨) ديوانه ص ٢٠٣ .

فكأنما حط بهـــا أركُب (جـــمع ركب) من تجـــار دارين بما يحملون من مسك وأطياب .

لها أرج فى البيـــت عالٍ كأنمـــا
ألَمَّ بها من تَجْرِ[١٢٩] دارين أركبُ

- 4 -

إلى جـانب ركـوب البـحر ، عـرف العـرب أيضًـا الغـوص عن اللؤلو[١٣٠] الذى كـان يعج به بحـر فـارس ، وأعـدت له مـغـاص مخصوصة ، أشهرها فى تؤام بحيث صار يطلق على اللؤلؤ أحياناً تعبير تؤامية أو تومة [١٣١].

---

(١٢٩) تجار .

(١٣٠) عرف أيضًا بالونى (واحدته وَنِيَّة) لسان العرب جـ٦ ص ٤٩٢٩ ، ويقول أوْس بن حجر .

كأنى ونىٌّ خانت به من نظامها   معا قدها فارفضت بهن الطوائف

ديوانه . تحقيق محمد يوسف نجم . بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩ . ص٦٦ .

(١٣١) معجم ما استعجم . جـ١ ص ٣٢٣ ، معجم البلدان . جـ٢ ص ٥٤ ، وانظر أيضاً : التيفاشى : أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار . تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيونى خفاجة . القاهرة . الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٧ . ص ٤١ ـ ٤٢ .

يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى يصف حبيبته [١٣٢] :

كالتؤامية إن باشَرْتَها   قرّت العينُ وطاب المُضْطَجَعْ

ويقول الأسود بنَ يَعْفُر النَهْشَلى يصف الخمر وساقيها[١٣٣] :

يسعى بها ذو تومَتَينِ مُشمّرٍ

قنأت[١٣٤] أناملُه من الفِرْصاد[١٣٥]

وكان العرب يميزون بين اللؤلؤ الكبير واللؤلؤ الصغير ، فكانوا يطلقون على اللؤلؤة الكبيرة تعبير دُرَّة (وتجمع دراً) واللؤلؤة الصغيرة جُمانة (وتجمع جماناً) ، وعادة ما كان الجمان يثقب، وينتظم فى سلك [١٣٦] .

يقول قيس بن الخطيم يصف حبيبته[١٣٧] :

كأنها درة أحاط بها الـ   غواص يجلو عن وجهها الصدف

---

(١٣٢) المفضليات ص ١٩٦ ، وانظر أيضاً معجم ما استعجم . جـ٢ ص ٣٢٣ .

(١٣٣) المفضليات ص ٢١٨ .

(١٣٤) أى صارت حمراءَ .

(١٣٥) التوت كناية عن اللون الأحمر .

(١٣٦) التيفاشى : المصدر نفسه ص ٤٢ ، انظر أيضاً لسان العرب . جـ١ ص ٦٨٩ ، تاج العروس جـ١١ ص ٢٨٢ .

(١٣٧) ديوانه . تحقيق ناصر الدين الأسد . القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٦٢ . ص٦٠ ، والأصمعيات ص ١٩٧ .

ويقول لبيد فى معلقته يصف بقرته وبياضها[١٣٨] :

وتضئ فى وجه الظلام منيرة كجمانة البحرى سُلَّ نظامها

وعندما يتذكر المخبل السعدى حبيبته تتساقط دموعه [١٣٩] :

كاللؤلؤ المسجور[١٤٠] أغفل فى سلك النظام فخانه النظم

وأحياناً كان يطلق على اللؤلؤ الصغير أو نظامه تعبير مرجان[١٤١]، لتشابك أغصانه كالسلك .

يقول الأعشى [١٤٢] :

من كل مرجانة فى البحر أخرجها غواصها ووقاها طينها الصدفُ

وبطبيعة الحال ، فلم يكن ظفر البحرى - وهو الغواص - باللؤلؤ أمراً سهلاً ، فالدرة التى يستضئ بها عرش كسرى - كما يقول المخبل[١٤٣] - واجه غواصها صعاباً جمةً فى استخراجها من بحر عاصف ذى أمواج ، تسكن بها أسماك اللُخُم (القرش) .

---

(١٣٨) ديوانه . تحقيق إحسان عباس . الكويت ١٩٦٢ ، ص ٣٠٩ ، ابن الأنبارى : المصدر نفسه ص ٥٦١ .
(١٣٩) المفضليات ص ١١٣ .
(١٤٠) المنظوم المسترسل .
(١٤١) التيفاشى : المصدر نفسه ص ٤٢ ، لسان العرب . جـ٦ ص ٤١٦٩ .
(١٤٢) ديوانه ص ٣١١ .
(١٤٣) المفضليات ص ١١٥ .

كعقيلة الدر استضاء بها محراب عرش عزيزها العُجْمُ
أغلى بها ثمنا وجاء بها شَخْتُ العظام[١٤٤] كأنه سهم
بلَبانه زيت[١٤٥] وأخرجها من ذى غوارب وسْطه اللُّخْم

ويصف النابغة الذبيانى[١٤٦] حال الغواص ، حين يوفق فى الوصول إلى درة ، وذلك فى معرض وصفه للمتجردة زوج الملك النعمان .

قامت تَراءَى[١٤٧] بين سَجَفَى[١٤٨] كلة[١٤٩]
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد[١٥٠]
أو دُرةٍ صدَفيَّة غواصها
بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويسجدِ

---

(١٤٤) دقيقها ويعنى أن الغائص الذى أتى بها كأنه السهم فى سرعته .
(١٤٥) بصدره زيت لملوحة ماء البحر .
(١٤٦) ديوانه ص ٩٢ .
(١٤٧) تعرض نفسها وتتظاهر .
(١٤٨) الستر المشقوق من الوسط .
(١٤٩) الستر الرقيق .
(١٥٠) برج الحمل .

ويتفرد الأعشى(١٥١) ـ أو خاله المُسَيَّب بن عَلَس ـ عن غيره من الشعراء ، فيعطينا صورة تفصيلية عن عملية الغوص ذاتها ، فهو وإن بدأ فتحدث عن صاحبته وشبهها بالدرة ، إلا أنه ينتقل ، فيوضح كيف حصل الغواص على هذه الدرة ، فقد اتفق مع أربعة غيره على طلبها ، وصار اختلاف بينهم إلى أن قلدوه أمرهم ، واستقلوا سفينةً عظيمةً ، سارت بهم زمناً طويلاً دون أن يعثروا على بغيتهم ، ثم رمت السفينة بمرساتها ، ورمى رئيسهم بنفسه فى لجة الموج ، وقد دهن جسمه بالزيت ، ومضى يبحث عن هذه الدرة التى هلك أبوه فى حبها ، وانتصف النهار ، وأصحابه لا يعلمون بشىء من أمره ، وظل على هذه الحال ، حتى عثر على الدرة ووجدها مضيئةً كالجمر ، وعاد بها إلى أصحابه ، ثم توجه إلى السوق ، وعرض عليه بعض التجار ـ وقد أخذ بجمالها ـ أن يشتريها منه بسعر عال ، لكنه كان يتمنع عليه ، لأنها تذكره بحبيبته وقد طلعت من خدرها .

---

(١٥١) البغدادى : خزانة الأدب . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ . جـ٣ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ . ويقول البغدادى أن أبا عبيدة وابن دريد وغيرهما نسبا هذه الأبيات إلى الأعشى ، أما الأصمعى فأثبتها للمسيب . والمعروف أن المسيب خال الأعشى ، وأن الأعشى راويته وربما انتحل شعره . ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

يقول :

كجمانة البحرِيّ جاء بها غواصها من لجة البحر

صُلْبُ الفؤاد رئيس أربعةٍ متخالفي الألوانِ والنَّجْر(١٥٢)

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ألقَوْا إليه مقالِد الأمر

وعلت بهم سجحاء(١٥٣) خادمةٌ تهوى بهم في لُجة البحر

حتى إذا ما ساء ظنهم ومضى بهم شهر إلى شهر

ألقى مراسِيَه بتهلكة ثبتت مراسيها فما تجرى

فانصبّ أسقفُ(١٥٤) رأسه لَبِدٌ(١٥٥) نُزعت رباعيتاه(١٥٦) للصبر

أشغى يَمُجُّ(١٥٧) الزيت ملتمسٌ ظمآنُ ملتهبٌ من الفقر

قتلت أباهُ(١٥٨) فقال أتبعه أو أستفيدَ رغيبة الدهر

---

(١٥٢) الأصل .

(١٥٣) الظهر وأراد بها السفينة .

(١٥٤) الطويل في انحناء .

(١٥٥) متلبد .

(١٥٦) مثنى رباعية إحدى الأسنان الأمامية .

(١٥٧) يقذف من فيه كما هي عادة الغائص .

(١٥٨) أي إن أباه هلك في حب هذه الدرة .

نَصَفَ(١٥٩) النهار الماءُ غامرُهُ ... وشريكه بالغيب ما يدرى

فأصاب مُنْيَتَه فجاء بها ... صدفية كمضيئة الجمر

يُعْطَى بها ثمنًا ويمنعُها ... ويقولُ صاحبه ألاتَشْرى(١٦٠)

وترى الشوارى(١٦١) يسجدون لها ... ويضمها بيديه للنحر

فتلك شبه المالكية(١٦٢) إذ ... طلعت ببهجتها من الخِدْر

- 5 -

الشعر (والأدب على نحو عام) مصدر من مصادر الكتابة التاريخية والشعر الجاهلى مصدر هام ـ أو هو المصدر الأهم ـ لتاريخ العرب قبيل الإسلام (١٦٣).

ورغما عن قلة ما تناهى إلينا من شعر البحر ، إلا أن هذا القليل ـ وكثرته ينتمى إلى إقليم البحرين ـ ينوه إلى نشاط بحرى

---

(١٥٩) إنتصف .

(١٦٠) ألا تبيع .

(١٦١) فى الأصل الصوارى هى لغة فى الصرارى أى الملاحون ، وروى الشوارى ، كما يقرر البغدادى نفسه فى شرحه وهو ما يقتضيه السياق .

(١٦٢) صاحبته .

(١٦٣) أى العصر الجاهلى ويمتد ـ كما نوهنا قبلاً ـ نحواً من مائتى سنة قبل الإسلام .

وافر . فقد تعددت مسميات السفينة وأجزائها بل ملاحيها ، كما تعددت أنواعها ، ودرج العرب على ابتنائها جميعا ، دون أن يتخذوا مسامير ، فكانوا يربطون ألواح السفينة بخيوط من ألياف شجر النارجيل ويطلونها بالقار ، ويجعلون بها القلاع والمجاديف التى تتفاوت بين سفينة وأخرى .

واستطاع العرب بسفنهم هذه أن يصلوا إلى أنحاء قاصية من العالم القديم ، ولم يأبهوا بما صادفوه فى رحلاتهم هذه من مخاطر ، ويتردد فى شعرهم ذكر مرافئ فى البحرين وعمان ، أخصها دارين وصحار وأوال والقطيف وتؤام ودبا والخط وهجر . وأقيمت لدى هذه المرافئ حصون ـ منها المشقر ـ تمنعها وتمنع التجارات الواردة إليها عبر البحر ، وأقيمت لديها أيضًا أسواق يتم فيها تعشير هذه التجارات .

ويعطينا الشعر الذى توافر لدينا فكرةً عن بعض السلع الواردة ومنها الرماح (القنا) والطيب والعطور ، وقد نسبت إلى المرافئ التى تحط بها ، فكانوا يقولون رماح الخَط (أو الخطية فحسب) ويقصدون الرماح الواردة إلى الخط كما كانوا يقولون مسك دارين ويقصدون المسك الواردة إلى دارين . واشتهر العرب باستخراج اللؤلؤ من مغاص مخصوصة على بحر فارس ـ أهمها تؤام ـ وميزوا

بين اللؤلؤ الكبير واللؤلؤ الصغير ، فكانوا يطلقون على الكبير منه دراً وعلى الصغير جماناً ، وكانوا يثقبون الجمان وينظمونه فى سلك .

وكان الغواص لدى رحلته فى طلب اللؤلؤ ، يتهيأ لها على نحو معين ، وتسير به مركبه إلى أنحاء قد تتناءى فى البحر ، إلى أن تصل إلى غايتها فترمى بمرساتها ، ويدهن الغواص جسمه بالزيت ، ثم يقفز إلى لجة الماء ، غير عابئ بأهوال البحر ومخاطره وحيوانه .

وما ذكرناه هنا يفصل بعض ما أتى مجملاً فى بعض من مصادرنا التاريخية عن نشاط بحرى للعرب قبيل الإسلام ، كما إنه يبدد (أو يساهم فى تبديد) الفكرة الشائعة (أو الوهم الشائع) عن عزوف العرب عن البحر وتهيبيهم له ، وقد نوه إلى هذه الفكرة (أو هذا الوهم) مؤرخنا الكبير عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ) فى مقدمته [١٦٤].

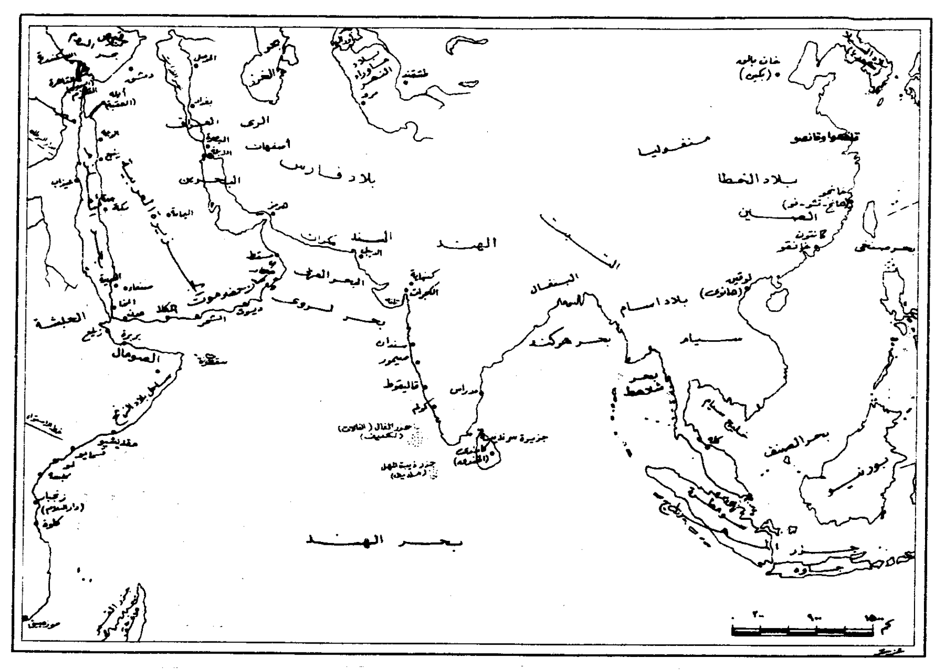
---

(١٦٤) تحقيق على عبد الواحد وافى . القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٨١ . ج٢ ص ٦٩٠ .



الأندلس وإفريقية وبحر الظلمات

(عن حسين مؤنس ـ أطلس تاريخ الإسلام)



سواحل إفريقية والمشرق

(عن حسين مؤنس ــ أطلس تاريخ الإسلام)

كتب المؤلف

١ ـ صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٨ . (أعلام العرب ـ ٧٦) نفذ .

٢ ـ عن العرب والبحر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ٢٠٠١ (الطبعة الأولى ١٩٨٩) .

٣ ـ أندلسيات ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ٢٠٠١ (الطبعة الأولى ١٩٨٩) .

٤ ـ تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣ .

٥ ـ الزُّط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ، ١٩٩٤ .

٦ ـ الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ١٩٩٥ .

٧ ـ قراءة جديدة فى عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، ١٩٩٦ .

٨ ـ العقد الثمين فى تاريخ المسلمين . الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ٢٠٠١ ، الطبعة الأولى (الكويت ، دار الكتاب الحديث ١٩٩٦) .

٩ - المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ؛ الطبعة الثانية. القاهرة ٢٠٠٠ ، (الطبعة الأولى ١٩٩٧) .

١٠ - القطوف الدوانى فى التاريخ الإسبانى . القاهرة ، ١٩٩٨ .

١١ - دراسات فى التاريخ والثقافة العربية ؛ مهداة إلى رءوف عباس حامد . القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠١ (تحرير) .

١٢ - الغجر . تأليف سير أنجوس فريزر . القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ . (ترجمة) .

١٣ - هوامش على دفتر الزمان . القاهرة ، ٢٠٠١ (تحت الطبع) .

رقم الإيداع
٢٠٠١/٤٤٥٣
الوادى الجديد للطباعة
تليفون / ٣٢٠١٤٧٢